أنّا كلاڤيل

زهر البنفسج، زهر الرغبة

رواية

الفارابي

Las Violetas son flores del deseo

Ana Clavel

أنّا كلاڤيل

زهر البنفسج، زهر الرغبة

رواية

ترجمة: رنا الموسوي

الكتاب: زهر البنفسج، زهر الرغبة
المؤلف: أنّا كلاڤيل
الترجمة: رنا الموسوي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: info@dar-alfarabi.com

www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-679-4

© جميع الحقوق محفوظة

La presente traducción fue realizada con el estímulo del Programa de Apoyo a la Traducción de Obras Mexicanas a Lenguas Extranjeras (PROTRAD), **dependiente de las instituciones culturales de México convocantes.**

تمت ترجمة هذا الكتاب بتشجيع ومساعدة من برنامج دعم ترجمة الكتب المكسيكية إلى اللغات الأجنبية بروتراد (PROTRAD)، **التابع للمؤسسات الثقافية المكسيكية الداعية.**

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

. . . نموت من أجل ما هو أقل من ذلك بكثير

الفصل الأول

كل من انحنى فوق بئر رغباته يعرف ذلك. أو كل من تأمل تلك الصور لدمى معذبة ومقيدة، تعرض جسدها اليافع والسجين لنظرات الرجل المتربص في الظل. أقصد أنه يمكن للمرء أيضاً النظر إلى الخارج ورؤية صورة جسد مقيّد لا وجه له، فيتذكر بوضوح شعوراً خبره: إنه الإغراء الذي يطلق العنان لرغبات يستحيل البوح بها، رغبات تجرفه إلى هاوية يصعب سبرها. فحين نعرف الشهوة، يُحكَم علينا، بأننا عاجلاً أو آجلاً، سنسعى إلى إرواء هذا العطش، لنشعر به مجدداً في ما بعد.

الآن وقد حصل ما حصل، وفيما تضمحل حياتي مثل غرفة كانت يوماً تغص بالنور ثم تآكلتها العتمة ـ أو كغرفة

اجتاحها فجأة نور يعمي البصر ـ أدرك أن كل الفلاسفة والمفكرين الذين بحثوا عن أمثلة لشرح اللامعنى لوجودنا على الأرض، قد نسوا الحديث عن شخصية «تانتاليس» في الميثولوجيا الإغريقية، المشتهي للتفاحة على الدوام لكنه لا يلمسها إلّا بطرف لسانه من دون أن يتمكن من أكلها.

أعترف أنه لدى سماع قصة «تانتاليس»، شعرت كمراهق بالاضطراب وأنا أجلس في الصف في تلك الصبيحة الممطرة مصغياً إلى أستاذ التاريخ الذي كان لا يزال شاباً ورصيناً لدرجة كان يبدو مثل خرّيج أحد المعاهد الدينية.

وفي تلك الصبيحة الممطرة التي بدت وكأنها ضحية هذيان داخلي، نسي الأستاذ «انايا» أنه وعدنا المرة الماضية بإكمال حكاية حرب طروادة فأخذ يقص علينا، وبصوت يكاد لا يُسمع، أسطورة «تانتاليس»، ملك إقليم «فريجيا» الذي كان يهزأ بالآلهة، فقرر أسياد جبل «الاولمب» أن يعدوا له قصاصاً فريداً من نوعه: غُمِّس حتى رقبته في بحيرة نبتت إلى جانبها أشجار مثمرة، وكان يتلهب جوعاً وعطشاً، إذ كلما حاول الشرب، كانت المياه

تنحسر وتفلت من شفتيه، وكلما أوشكت يده على بلوغ أغصان الأشجار المثمرة، كانت تلك تطول.

وفيما كان الأستاذ يروي لنا الأسطورة، كانت أصابع يده الموجودة دائماً في جيب المعطف الذي لم يخلعه تتلاعب بما يمكن اعتباره فتات خبز وهمي. أما نظراته، فكانت تذهب إلى أبعد من النوافذ المسيجة بشباك أشبه بالأسلاك الحديدية، وتبدو شاخصة في نقطة كان يصعب على الكثير من التلاميذ رؤيتها.

أما بالنسبة إلينا نحن الذين كنا نجلس على طول الحائط، فكان يكفي أن نستدير ونلتفت قليلاً في هذا الاتجاه لنعرف ما الذي يستحوذ على اهتمامه.

ففي آخر الملاعب، وتحديداً في ممر الأعمدة الممتد بين المرأب والحمامات، كانت ثلاث فتيات بلباسهن الصارم الخاص بصفوف الثانوية، يحاولن جرف المياه المتجمعة من جراء عطل في أحد المجارير، وكن يقمن بذلك بدافع اللهو أكثر مما هو للامتثال لقصاص يبدو أنه فرض عليهن.

وكن يتبللن بشعور من الفرح ويرتجفن من اللذة أكثر

مما هو من البرد، لا سيما حين هجمت إحداهن على الأخريين بخرطوم المياه ورشتهما بضخات فجائية. لاأزال أذكر اسم تلك الفتاة التي كانت ترش صديقتيها بالماء: سوزانا غارميندیا.

في ذاكرتي، لا تزال صورتها في تلك الصبيحة المشحونة بالغيوم والشهوة مرتبطة بمشهدين: نظرة أستاذ التاريخ المفتون بتلك اللوحة في الممر والمحكوم عليه، مثل «تانتاليس»، بأن يحاط بالطعام والماء دون التمكن من إرواء عطش وسد جوع شديدين.

أما المشهد الثاني، فهو حين توجهت سوزانا غارميندیا نحو أحد الأعمدة الضخمة في الممر، وقبل أن تسمح لصديقتيها برشها بعد أن تمكنتا أخيراً من انتزاع خرطوم المياه منها، وقفت في الجانب المكشوف للسماء التي أصمّها قصف الرعد، وتركت نفسها تتبلل، ناسية عالم المدرسة وكاشفة وجهها للمطر الذي كان ينهمر عليها وكأنه يحاول اختراقها. كانت المسافة بيننا لا بأس بها، لكن استسلام الفتاة كان جلياً، وكذلك ابتسامتها الخفية وانتشاءها الساطع. كانت مقيدة بالعمود من دون قيود واضحة، سجينة لذتها الخاصة.

في الحقيقة، لا أظن أنني رأيت يوماً سوزانا غارمينديا عن قرب، فهي كانت معروفة بطيشها بعد طردها مرات عديدة من قبل ناظرة الصفوف الثانوية، كما أنها كانت تنتمي إلى الجيل الأكبر سناً في المدرسة وتحيط نفسها دائماً بصديقات وصبية كانوا يسعون دائماً، وبإصرار، للاقتراب منها، فلم يسعني أن أكوّن صورة أوضح عنها: ضفيرة شعر عسلي مسدلة على بشرة مسمرّة وكنزة مربوطة عند الوركين وجوارب ناصعة البياض عند بطتي ساقين شبه انثويتين.

لا شك في أنها كانت أشهى ثمار البستان. حتى بالنسبة إلى من كان يقف على رؤوس أصابعه، مثلي أنا، لم يكن باستطاعته رؤية أبعد من أوراق الأغصان. أما من كان معزولاً في برج سلطته المدرسية، فكان بوسعه النظر إليها فقط وإلى نعومتها الشهية. لكن أحدهم استطاع مد يده وقطف الثمرة. نسيت اسمه لأن ذلك غير مهم. المهم أن تحوله إلى بستانيّ لما كان ممكناً لولا موافقة سوزانا غارمينديا المسبقة؛ لولا الـ «نعم» الصامتة والغامضة التي

جعلتها تراه في المرأب المجاور لحمامات الفتيات، فيما كانت رفيقتاها المخلصتان تراقبان المدخل من مكانين مختلفين: إحداهما في أول ممر الأعمدة والثانية تحت القوس المطل على ملعب الصفوف الثانوية.

لم يعرف ما حدث بالتحديد، أكانت الناظرة قد ساورتها الشكوك وضغطت على الصديقة التي كانت واقفة تحت القوس بغية انتزاع اعتراف مقصود أو غير مقصود منها، أو أن تلك الصديقة هي التي وشت بسوزانا للانتقام منها بسبب شجار ما. الأكيد هو أن الناظرة دخلت المرأب ووجدت سوزانا وشاباً من حراس المدرسة الليليين يقومان بأعمال مشينة لا يمكن وصفها.

لقد هزىء «تانتاليس» بالآلهة ثلاث مرات، الأولى حين كشف للجميع أين يخبىء الإله «زوس» عشيقته، وثانياً حين تمكن من سرقة شراب الآلهة وطعامها من طاولة «الأولمب» ووزعه على أقربائه وأصدقائه، وثالثاً حين أراد امتحان الآلهة فدعاها إلى مأدبة كان الطبق الأساسي فيها أعضاء ابنه الذي ذبحه كالعجل قبل يوم عند الفجر. لكن

الآلهة قابلت وحشية «تانتاليس» بعذاب قاسٍ، وكأنها أرادت إفهامه أنه لا يجوز العبث معها.

طُردت سوزانا غارميندیا من دون تردد. قلة منا فقط رأتها تخرج حاملة أغراضها وخلفها والداها، تنهشها عيون الناظرة، وأهالي التلامذة ومدير المدرسة. كانوا يسرقون بقايا كرامتها، قبل رميها بازدراء كأنقاض ملطخة بالدماء وهي حية. لقد مرّ وقت طويل قبل أن تتمكن المدرسة من إسكات الشائعات والعودة إلى برامجها الببغائية واحتفالاتها الرياضية الوطنية. ومع اقتراب امتحانات نصف السنة، تلاشت آخر الأصداء التي كانت تلطخ سمعة سوزانا كمن يعذب جسداً. أما الأستاذ «انايا»، فبقي حتى آخر السنة الدراسية ثم طلب نقله إلى مدرسة في غرب البلاد.

بالطبع لم أصارحه يوماً في الموضوع. إلا أنه حين طلب إلينا، كفرض أخير، أن نكتب نصاً حول شخصية أو حادثة تناولها خلال دروسه، قررتُ أن أكتب عن «تانتاليس». كان نصاً من عدة صفحات بأسلوب حاد حتى المبالغة، كأسلوب المراهقين، وكانت قيمته الأساسية،

بحسب ما أدرك الآن، هي فهمي في تلك السن الباكرة للعذاب الحقيقي الذي يعانيه من يشعر بالرغبة. ولم تكن جائزتي الكبرى العلامة الممتازة التي نلتها بل نظرة الأستاذ «انايا»، تلك اللحظة التي يشعر فيها المرء بالمجد حين يتم التعرف إليه. لم ألحظ أو لم أشأ أن ألحظ آنذاك في تلك النظرة بريقاً مضطرباً واستسلام من يدرك مصيره: إن الظمأ لا يمكن إرواؤه أبداً.

في ذاك النص الممتد على أربع صفحات، والمكتوب بأسلوب أعترف الآن بعد قراءته بأنه أعوج لا بل متكلف، تمكنت من لمح ظل المراهق الذي انحنى لاشعورياً فوق بئره الخاصة: بعد آلاف المحاولات، وبعد أن أدرك «تانتاليس» أن جهوده تذهب سدى، وعلى الرغم من الجوع والظمأ، بقي ساكناً لا يحرك شفتيه لابتلاع جرعة من الماء أو يمد يده لقطف الثمرة المرغوبة المتدلية من أقرب شجرة كالحجر الكريم. وحين بلغ منه اليأس مبلغه، رفع عينيه إلى السماء كمن يتضرع إلى الآلهة، وكأنه على وشك طلب السماح منها. لكن في تلك اللحظة بالذات، رأى عند طرف الغصن القريب منه ثمرة جديدة مرتعشة

ولذيذة، إنما بعيدة المنال. ولا بد أنه شتم الآلهة ولعنها حين أدرك أنه بمجرد النظر إلى الثمرة، كان العذاب يغلي مجدداً في أعماقه.

للنظرة تبعات لا تحصى. الآن بوسعي تأكيد ذلك: كل شيء يبدأ بالنظرة، وبالتأكيد الاغتصاب الذي نخبره بلحمنا ودمنا حين يعرض أحدهم جسده ببراءة مجرمة.

الفصل الثاني

أمامي الآن صور الدمية المعذبة التي ذكرتها آنفاً. هي دمية من صنع فنان عمل في السر: هانس بلمير. لن أتحدث عنه الآن لكن من يدري؟. لم أكن أنوي التحدث عن سوزانا غارميندیا أو عن أستاذ التاريخ لكنني بدأت كلامي بهما. ما أردت الحديث عنه هو أمر آخر. لو أردت تلخيص حياة رجل ببضع كلمات، لقلت إنها قصة حلم. أحاول سردها بالتفاصيل المملة التي قد لا تظهر فيها بوضوح، إنما تؤثر على نحو غامض في حبكتها الضبابية.

وسرد تلك القصة في كوخ حديقتي، محاطاً بالدمى الخاصة بي و «جوائزي» قبل أن تُنتزع مني، له علاقة بحدث مؤكد حصوله: هي لحظة التمس «تانتاليس» رحمة الآلهة من يد الكاهنة التي تكفر عن الذنوب وتضع حداً للعقوبة. لكن لا يجوز أن أتسرع في استحضارها من دون

جدوى، فهي كحورية أثيرية ستأتي في موعدها، مثل ڤيوليتا، أو مثل الدمى الأخرى.

لنقل إن قدري كتب قبل ولادتي، وبصورة خاصة حين قرر أبي المتزوج حديثاً استثمار المال الذي ورثه من جدي وجدتي في مصنع دمى. أي إن هذا المشروع نَما في ذهنه في وقت كنت أنمو في بطن والدتي. أجهل متى، مع مرور زمن الحفاضات والخطوات الأولى، قرر أن يصطحبني إلى المعمل. على الأرجح حصل ذلك حين بدأت أمي تعطي اشارات بأنها تريد أن تصبح حاملاً مرة ثانية. لكن المحاولات باءت بالفشل وبقيت ولداً وحيداً متسلطاً، صغير عائلة تلاشت رغبتها في التكاثر، وفق تعاليم العهد القديم. النتيجة هي أنه تم تدليلي إلى أبعد حدود، على يد أمي تيريزا أولاً، ثم جدتي اديلاييدا وخالاتي الكثيرات اللواتي كن يشترين لي الهدايا والسكاكر ويجعلنني أتنكر كراعٍ صغير أو ككاوبوي، ويعلمنني كلمات بذيئة لكي يحمر وجه أبي خجلاً.

ومع ترعرعي بين نساء كثيرات، قرر أبي، خوليان ميركادير، أن يصطحبني إلى معمله ليعرفني على عالم

السكك الميكانيكية والبساط المتحرك حيث كان يتم وَصلُ مفاصل أجسام الدمى. كان يتركني هناك كما لو كنت في حديقة أطفال بريئة ويفترض بي أن أتسلى إلى أقصى الحدود قبل التحاقي بالمدرسة التي كان موعدها يقترب.

ومن أجل توجيهي وتعليمي، عهد بتنظيم زياراتي للمعمل إلى رجل ذي نظرة زرقاء، هو مصمم الدمى والمشرف على إنتاجها ورفيق أبي منذ أيام الجامعة وشريكه الألماني الذي ترعرع في المكسيك بعد الحرب العالمية الثانية، والذي كان يدرس الهندسة الكيميائية صباحاً وفن الرسم مساء: كلاوس فاغنر.

أذكر أن نظرة كلاوس فاغنر الزرقاء كانت تخيفني، فشفافيتها توحي بأن لا غور لعينيه، فيستحيل إخفاء شيء عنها. وحين أصبحت مراهقاً وبدأت أكتشف في نفسي رغبات وشهوات لم أعهدها من قبل، عرفت أنني كنت محقاً: لا شيء إلّا ترصده عيناه. والحقيقة هي أنني اكتشفت صور «بيلمر» التي أصابتني بالعدوى بفضله هو، حين نسي يوماً إقفال تلك الغرفة المظلمة التي حوَّلها إلى مكتبه الخاص.

أعرف اليوم أن ما فعله لم يكن عن غير قصد. كان يريد اختباري لمعرفة طبيعتي لدى وقوفي مذهولاً أمام صور توحي ببراءة فقدت نضارتها. لكن قبل إدراكي ذلك، مرت سنوات طويلة من التمرين والتعليم بدأتها بقضاء ساعات نسيت نفسي وأنا أتأمل أجزاء لعب لا تزال مفككة، كانت تمر على البساط المتحرك قبل أن تجمّع لتصبح نماذج لآلاف الدمى، التي ستفرح فتيات مجهولات في بلدان بعيدة وتدغدغ أحلام الأمومة لديهن.

كان كل جزء، أكان ذراعاً أو ساقاً أو صدراً أو رأساً، يشكل كياناً على حدة، مذهلاً ومتلألئاً، ذا بشرة مثالية، بلاستيكية وحسنة التكوين تتمتّع بنعومة لامتناهية تدعوك إلى الاقتراب منها ولمسها.

كنت أرى الدمى التي يخرجها السيد غابرييل وابنه من القوالب لوضعها على البساط المتحرك تمهيداً لعملية التبريد، فيتهيأ لي أن العالم بأسره يدور على هذا البساط. لحظة تلو لحظة، كنت أعي، من دون أن أدرك تماماً،

أن أكثر جمال لا يحتمل هو ذاك الذي يعبّر في أشد خموله عن رغبته الجامحة في أن يستباح.

وفي إحدى المرات التي اصطحبني أبي إلى المعمل، قال كلاوس: «ولدك يحب الدمى كثيراً». لم أسمعه يوماً يتكلم بالألمانية، وكأنه طوى هذا الفصل من حياته إلى الأبد. في تلك المرة، تركني أبي فوق طاولة لحفظ الأرشيف في مكتبه الكائن بين طابقين، وكان أمامي فاصل زجاجي يسمح لي بمراقبة كل نشاطات المعمل. لا أدري كم من الوقت بقيت فوق الطاولة. قال لي كلاوس: «لا تتحرك وإلّا وقعت»، فأطعته تلقائياً: كنت غارقاً في تأملات فقدت خلالها الشعور بالزمن، وقد بهرتني الأصوات التي كانت تصلني من بعيد، متقطعة، في وتيرة شبيهة بسحر الأفلام الصامتة.

أما أبي، فكان غارقاً في أوراقه لدرجة أنه نسي وجود ابنه. تأخر في الردّ على كلاوس، في وقت تأخرت أنا أيضاً عن تذكر المكان الذي كنت فيه.

وقال وهو يضحك لدرجة أرعبتني: «لا بأس... ما

دام هو يحب النظر إليها ولا يرغب في أن يكون هو نفسه دمية».

اقترب كلاوس من طاولة الأرشيف وبحثت نظرته الزرقاء عن عينيّ، وبعد معاينة استمرت بضع دقائق، قال بلهجة قاطعة: «لا تقلق يا خوليان، ابنك من طينَتنا».

بعد فترة، سنحت لهما فرصة للتأكد من هذا القول. كانت ردة فعل كلاوس أكثر ليونة من أبي الذي ضربني بالزنار ـ وكأنه وجد نفسه مضطراً لمعاقبتي ـ وأبعدني عن المعمل عدة أسابيع. أما خالاتي وجدتي وحتى أمي، فأبدَين بعض التحفظ والامتعاض، لكنني سمعتهن يوماً يتباهين بـ «زعرنتي» وهن يخلنني نائماً في الغرفة المجاورة.

«أصبح رجلاً... لم يبلغ بعد السادسة من عمره وها هو يتصرف كالرجال. من الواضح أنه سيشبه أباه...».

تلك الكلمات التي تفوهن بها بلهجة احترام أشعرتني بالاعتزاز، إنما أثارت أيضاً استغرابي ودهشتي. عدتُ بالذاكرة إلى المشاهد التي تسببت بردود الفعل تلك. وغالباً ما أستعرض في ذهني ذاك الفيلم الصامت الذي

لايزال حياً في ذاكرتي، والذي تظهر فيه ابنة إحدى العاملات بفستانها المطبوع بالزهور والشبيه بثياب الدمى.

كانت «ناتي» ـ وقد عرفت اسمها حين وُبّخت بسببها ـ لا تنطق بعد، لكن حين أعطيتها دمية عارية، ناغت وهزهزَتها بين ذراعيها. لا أدري كيف دخلنا تلك الغرفة التي كانت تستعمل كمستودع وحيث تكدست في صندوق كبير دمى لا تزال عارية، فلم يصعب عليّ الصعود على مقعد وتقديم اللعب إلى «ناتي» واحدة تلو الأخرى. لا أذكر من منا خطرت له فكرة أن نجلس الدمى على الأرض. لكن «ناتي»، وبكل منطق وبساطة، بادرت إلى خلع فستانها وجلست إلى جانب الدمى وكأنها واحدة منها. وما إن خلعت ثيابها الداخلية بمساعدتي، حتى اكتشفتُ بين ساقيها شيئاً لا أذكر أنني رأيته من قبل وأثار استغرابي كثيراً.

ـ «أنت مكسورة...».

ثم كررتُ تلك الكلمة كالصدى، لا بقصد الاتهام أكثر مما هو لاستيعاب اكتشافي وفهمه: «مكسورة، مكسورة، مكسورة».

بعض الأمور يفهمها حتى الأولاد و «ناتي» فهمت: أمسكت إحدى الدمى وعاينت ما بين ساقيها. كانت البشرة البلاستيكية ملساء ولا تترك مجالاً للشك: الدمية لم تكن مكسورة. انتفضت «ناتي» وهربت وهي تصرخ وتبكي. لكنني لا أذكر صراخها بل وجهها الحزين وفتحة فمها الذي لم يُصدر إلّا صراخاً صامتاً. وقد أخافتني ردة فعلها مثلما أخافني اكتشاف سر جرحها. أجل كيف بقيت مختبئاً في صندوق الدمى من دون أن أختنق، إلى أن أنقذني كلاوس بعد ساعات. كنت قد غفوت وأنا أتأمل عينين قزحيتين لدمية صهباء، وأشتم رائحة الدهان المنبعثة منها.

أجهل سبب شعوري بالأمان إلى جانب جسدها المثالي، المقفل والخالي من أي ندبة.

الفصل الثالث

«الانحراف» هو ما يؤذينا من دون أن يدعنا نشيح النظر. يوقظ الغياهب الصامتة فينا ورغبات ملحة يستحيل البوح بها: هي ظلال تترصدنا وتتوق إلى التجلي فينا. ربما لهذا السبب تنتابنا رغبات لم نعتقد يوماً أننا سنشعر بها، رغبات نائمة ينبعث منها فجأة عطر لا يقاوم... عندئذ، يأتي الانحراف ليلعب ورقته الأساسية: ننظر إلى المرآة ولا نتعرف إلى أنفسنا. نصبح أشخاصاً آخرين. متى لم أعُد الشخصَ الذي كنت عليه؟ أو ربما عليّ الاعتراف أنه في لحظة انبهار أزلية، أزيلت الغشاوة ولم أعد مضطراً إلى الاختباء؟ ربما لطالما كنت ذاك الرجل، المختبىء وراء الشجرة، والمتربص في الظل لبراءة منتهكة حرمتها وهي في جل بهائها. حتى لو كانت شقيقة زوجتي إيزابيل تظنني مجرماً، فأنا لست بمجرم، على الأقل ليس بالمعنى الذي تراه هي. أنا لم أقتل أي حيوان صغير، ولم أمنع الحليب عن أي رضيع. بوسعي الدخول من دون خوف

إلى مملكة الأموات ـ علماً أن الموت أو السجن لا يقلقانني البتة. إلّا أن الوعد الوحيد الذي لا أزال أنتظره، مهما بدا عبثياً، هو تلك اللحظة التي تنتعش فيها الحياة ثم تنهار، متعة لم تصدر بعد من الشفتين أو جرح يختلج كوردة أوشكت أن تذبل. حتى لو كنت عاجزاً عن لمسها، يكفيني تأملها وهي تمتلىء نعمة جامحة.

أعرف أنه لا يجدر بي أن أفاجأ لكون صاحبة تلك الادعاءات هي إيزابيل، الأخت الصغرى لزوجتي إيلينا.

كانت طفلة تمتطي صهوة ساقيّ فيما شقيقتها تتزين قبل ملاقاتي. فجأة، كانت توقف خببها وتهمس في أذني بكل جدية: «أنا خطيبتك الحقيقية وشقيقتي خطيبتك الوهمية، أليس كذلك؟». في حضور إيلينا التي كانت تتظاهر بالغيرة لدى رؤيتنا معاً، كنت أجيبها همساً أيضاً: «إيلينا هي المفضلة لدي، لكنك حبيبتي المدللة». عندئذ، كانت تنزل إيزابيل عن صهوة فرسها كأميرة تبلغ من العمر تسع سنوات، فارسة لينة ومتعالية، جذابة ورائعة كما لمحتها لبرهة.

في تلك الأيام، كنت عدلت عن دراسة الطب للاهتمام بمعمل الدمى. كان أبي توفي تواً جرّاء نوبة قلبية، وحين

أخذت تلك المسؤولية على عاتقي بموافقة كلاوس، لم يخطر ببالي أننا سنصبح بعد بضع سنوات ليس شريكين فقط بل متواطئين في تصنيع دمى محرمة: دمى «الڤيوليت» أو «البنفسجات»، تلك النماذج الفريدة في نوعها التي تم توزيعها خفية عبر العالم لزبائن مقتدرين يستعملونها في مضاجعهم ولكن أيضاً مملكة واسم للذين لا يجب أبداً أن يستسلموا لإغرائها.

لم تكن دمى «الڤيوليت» منحرفات منذ البداية. فبوجهها الطفولي وجسمها الذي لم يبلغ بعد، والشبيهة بالأميرات بثيابها الصارمة وشعرها المرفوع أو بالفتيات «على الموضة» بتنانيرها القصيرة جداً وشعرها المنفوش، كانت دمى «الڤيوليت» الأولى في منتهى الكمال، تؤدي على أحسن وجه دور الفتيات الناضجات والمهذبات. ولم يكن في البلاد قط دمى مثلها قادرة على منافسة الدمى الأجنبية التي كانت بدأت تجتاح السوق المحلية.

وفي معرض الدفاع عن نفسي، أقول إن اسم الدمى كان فكرة إيلينا نفسها، فهي لطالما حلمت أن تسمي ابنتها الأولى «ڤيوليتا»، إكراماً لذكى صديقة طفولة؛ فالصداقة بين النساء حين تكون حقيقية، تتجلى في إخلاص عميق

وروابط قوية جداً. بالطبع أنا لم أعرف قط ڤيوليتا تلك، التي كانت طفلة فاتنة تشاركت وزوجتي في الألعاب والقصاصات، وكانت تظهر إلى جانبها في إحدى الصور بالأبيض والأسود التي كانت تحتفظ بها إيلينا مثل كنز ثمين في علبة من خشب «الاولينالا» ـ وهي من الأشياء القليلة التي أخذتها معها حين تركت المنزل. في تلك الصورة، تبدوان متنكرتين بزي الجنيات على نحو يبرز جسدهما النحيف، وكان ڤيوليتا التي لم أعرفها وحبيبتي إيلينا صورة مزدوجة عن حيوية بالغة: وكأنهما جروان جائعان على وشك الوثب للاستمتاع بآخر دفعة من السكاكر والمداعبات.

ربما لذلك أيضاً قررت في عز شبابها أن البنفسجي هو لون شغفها الليلي، وإن غيرت رأيها لاحقاً مع تبدل الرياح. لم نكن قد التقينا بعد وكانت من قراء الشاعر بابلو نيرودا. «من كثرة الحب تخضبت حياتي باللون البنفسجي»... همست تلك الأبيات في إحدى الأمسيات حين كنت واضعاً رأسي على بطنها العاري، يوم كانت لا تسمح لي بامتلاكها، إلّا عبر النظرات. وكانت تقول لي بلهجة لعوب: «احتفظ ببذرتك كالكنز، إلى حين تزرع في أحشائي زهرات بنفسج».

حين أطلقنا في السوق أول مجموعة من دمى «الڤيوليت»، كنا متزوجين منذ سنتين، لكن على الرغم من محاولاتها، لم تستطع أن تحلم بطفل حتى ذاك الحين. وبسبب حاجتها الملحة لمنح الحنان، استسلمت للواقع على طريقتها فأطلقت اسم «الڤيوليت» على كل دمية جديدة في المعمل، ثم صممت مع كلاوس نماذج دمى فتيّة وثيابها. كانت العلب ذات الواجهة الزجاجية أيضاً فكرتها هي، إذ وضعنا كل دمية في ذاك الديكور المصغر المتبدل: في المدرسة وعلى الشاطىء وفي مدينة الملاهي وفي الحفلة وفي رحلة إلى البندقية... كنت أنا وكلاوس ننظر إليها وهي تلعب بالدمى كفتاة صغيرة، وكأنها بقيت طفلة وأصبحت امرأة رغماً عنها. كانت تعطف على إيزابيل، صاحبة النزوات التي لم تتقبل خسارة شقيقتها ـ ولا خسارة خطيب شقيقتها، حبيبها الحقيقي ـ، وتهتم بكلاوس وبي طبعاً، كأنها تؤدي دور الأم المتفانية، في مزيج من الصدق والتمثيل تماماً كما يلعب الأطفال. هذا التصرف أيقظ في داخلي إدراكاً يقينياً بأننا مرتبطان وتائهان لدرجة الشعور بضعف شديد يسميه الكثيرون عادة الحب، دون إدراك تبعات هذه العادة.

فحين ارتمت إيلينا في حضني في إحدى الليالي، وقالت لي إن «ڤيوليتا» صغيرة تنمو في أحشائها ـ هي لم تشك يوماً في جنس الجنين ـ انتابني شعور مبهم، إنما أكيد، بأن سعادتها مرتبطة بكارثة. ضممتها إلى صدري مستشعراً بأنه سيكون عليّ التخلي عنها بعد فترة قصيرة. تخيّلت بطنها الغريب المنتفخ بفعل جنيّ شرير وتمنيت لو أعاقبها، لو أخترق تلك البشرة المنتفخة المحبوكة بالدماء والأنسجة، وأقضي على تلك البصلة الترابية التي كانت تحتضن هلاكي. وفي أحلامي، كنت أنفذ ما لم أكن أجرؤ على فعله في حالة اليقظة.

اضطررت طبعاً إلى أن أخفي عن إيلينا كم كان فرحها يؤلمني. لكن مع تنامي فرحها الذي كان يؤذيني، عجزت عن إشاحة النظر، برغم شعوري بأن في هذا البطن الذي أحبه والذي يمتلىء يوماً بعد يوم بابتسامة عريضة ومنتصرة، كانت «ڤيوليتا» الجديدة، المجردة بعد من العينين، والغارقة في طهارة شرنقتها، تنظر إليّ بحنان وضعف وإثارة.

الفصل الرابع

إذا نظرنا إلى جرح بمتعّن، قد نرى فيه وردة ذبلت أو فماً يبعث قبلات حمراء في كل الاتجاهات. أو ما هو الشيء نفسه: ڤيوليتا الجالسة فوق ركبتي هي أمها في صورة التقطتها قبل نحو عشرين عاماً. كانت قد خرجت من الحمام تواً، ملفوفة بمنشفة لم تغط كثيراً جسدها وهي في السنوات الخمس من عمرها. كانت ڤيوليتا تمد نحوي ذراعيها وشفتيها الطفوليتين طالبة الاقتراب منها، وهو ما استغربته إذ كانت في تلك الفترة لا تزال تفضل عطف أمها. كانت أصبحت جرحاً عميقاً في علاقتي مع إيلينا التي تغيرت بعد الإنجاب. نسيتني ونسيت دمى «الڤيوليت»، كما لو كنا مجرد تجربة وحجة لتطلق العنان لأمومتها المطلقة. بدورها، بات لها هواجسها الخاصة، هواجس رحيمة لاتزال تبقيها إلى جانبي، إلا أنها كانت تبتعد أكثر عن شفتي كلما حاولت تقبيلها، وعن يدي كلما أردت ممارسة الحب معها.

عندئذ لجأت إلى المعمل والدمى، وأيضاً إلى الكتب والأفلام الصامتة التي لطالما كان لها وقع سحري ومخيف عليّ. غالباً ما كنت أذهب إلى إحدى دور السينما في جنوب المدينة لمشاهدة تلك الأفلام برفقة كلاوس الذي كان أيضاً يستمتع بها.

كنت أغرق في كتب التصوير والرسم وعلم الجسد. وبرغم معرفتي تمام المعرفة بأذواق شريكي وصديقي، كنت أفضل أن أبقى وحيداً في تلك المغامرة. فلم نتصفح يوماً معاً كتاباً لبيلمر أو كتاباً عن الدورة الدموية. إن أراد أحدنا الإشارة إلى شيء معين، كنا نستعين بطاولة الرسم الخاصة بكلاوس التي كانت تحتوي على كل أنواع الريش والأقلام الجاهزة للاستعمال. وفي وسط تلك الطاولة الخالية دائماً كما لو كانت جسماً تم تشريحه، كنا نضع المجلد المفتوح على الصورة أو النص المرجع، بطريقة تمكن كلاً منا من تأملها على حدة. في تلك الأيام التي ابتعدت إيلينا وڤيوليتا عني، قرأت رواية ابنة «بوتاديس»، الذي كان صانع فخار في كورنث. كانت، ومن أجل الاحتفاظ بصورة حبيبها المهاجر، ترسم ظله العابر على

الحائط، مستعينة بضوء شمعة. غادر الحبيب طبعاً ولم يعد البتة، لكن من تلك المحاولة لمحاكاة ظله، من تلك الرغبة المستحيلة، ولد فن الرسم، بحسب ما يشرح الكتاب. (علماً أن الإطار المرافق للصورة يشرح أن ابنة «بوتاديس» وصل بها شغفها إلى حدّ التحول هي نفسها إلى ظل، أكثر سواداً من ذلك الذي رسمته).

لا يسعني إلّا تذكر «تانتاليس» والتفكير في كل محاولاتنا، اللاشعورية أحياناً، للاقتراب من الجسد الذي نشتهيه. أقول «الجسد»، لأن الرغبة تتجلى دائماً في المادة ولها دائماً أثرها الجسدي: لو عدت بالذاكرة إلى السنوات الأولى لزواجنا حين كانت إيلينا على الأرجح لا تزال تحبني، أشتم مجدداً أريج الزهر الذي كانت تعطر به سُرَّتها. ثم أستذكر الصورة الكاملة: مشهد صامت لإيلينا وهي تدخل غرفة ڤيوليتا الصغيرة في ليلة دافئة، تاركة عند الدرج أثر عطرها الممزوج برائحة مهبلها التي تذكر بعبير الشجر الرطب. «شجر وزهر العسل»... هذا ما كنت أفكر فيه حين بقيت أنتظرها في آخر الدرج بعد أن أرشدني أنفي إليها في الظلام.

تأخّرَت إيلينا في الخروج، فقد استيقظت ڤيوليتا ودندنت في أذنها حتى نامت، أما أنا الذي غلب عليّ النعاس فسمعتني أردد «شجر وزهر العسل».

سألتني فجأة: «أتعرف أن لكل مهبل امرأة رائحة مختلفة؟».

«وأنت كيف تعرفين ذلك؟» سألتها وقد أغوتني صورتها لامرأة تتمتع بتجربة واسعة بعد أن كنت أعتقدها نموذجاً ساذجاً ومغناجاً، فلم أقوَ على مقاومة إغرائها أكثر وأخذت أقبّلها في الظلام.

أجابتني بإصرار: «لا أعرف، لكنني أعرف» قبل أن تكتم اعتراضها ـ ولذتها ـ أمام جموح رغبتي.

منذ ذلك الوقت، أصبحت لدمى «الڤيوليت» القديمة رائحة: أريج رقيق مستخلص من عطور صافية وأحياناً مختلطة. كانت تلك التجارب الأولى. لقد أبدى خاسينتو ابن السيد غابرييل بعض الامتعاض من ذلك التجديد، لكن سرعان ما استسلم لسحر تلك البشرة المعطرة والطرية التي كانت تولد بين يديه.

أما مع دمى «الڤيوليت» المحرمة، فاختلف الأمر: كانت رائحتها شبيهة بعطر النموذج الأصلي. رائحة غير

محددة كنت اشتممتها لدى ابنتي ڤيوليتا البالغة من العمر اثني عشر عاماً حين كانت تقبلني مودعة لدى ذهابها إلى المدرسة الداخلية، التي كانت تعود منها كل أسبوعين إلى البيت، كمن يفي بوعد.

على مدى أشهر، قاومت رغبة في التفتيش بين الثياب التي كانت تتركها في كيس الغسيل نهاية الأسبوع.

كانت ايلينا قد تركتنا الصيف الماضي. فجأة ومن دون إنذار، رحلت لتعيش إلى جانب هواجسها. ربما كان عليّ التردد إلى خزانتها حيث بقيت ثيابها معلقة على مدى أشهر كالأشباح. لكنني آثرت الذهاب إلى غرفة ڤيوليتا حيث وجدت أثر عطرها الشبيه بعطر الحوريات: مزيج من أريج الشجر والعسل. استبقت عندئذ الحلم الذي عشت من أجله، تلك الذكرى لجرح يختصر حياتي كلها.

الفصل الخامس

أكرر للمرة الثانية: إن جريمتي ليست بجريمة، إنما لا يمكنني ادّعاء البراءة المطلقة في الوقت عينه. هل تجرأ أحدهم على الحكم على هانس بيلمر لأنه حلم بالدمى التي صنّعها؟ حتى المتفائلون والسذج ـ بمن فيهم أولئك المجانين الذين يسمون أنفسهم «جمعية مؤلهي النور الأبدية» ـ المصرون على الاعتقاد بأننا مكوّنون من نور إلّهي فقط، عليهم أن يتذكروا قليلاً أحلامهم الخاصة والاعتراف بأنهم مسكونون بغياهب شديدة الظلمة. عليهم الاعتراف بتلك اللذة التي قد تُشعرنا بها أيادٍ مجهولة آتية من مملكة الظلمات، مخترقة بشرتنا في عملية صامتة وخالية من الألم. عليهم الاعتراف أيضاً بالهذيان الذي يصيبنا لدى رؤية أحدهم يحاصر الشخص الذي نحب ويحشره في الزاوية، ثم يستسلم لغريزته الدموية ويقطعه إرباً إرباً لدرجة تصبح نقاط الدماء الصغيرة وردية اللون لا بل شفافة. عندئذ نرتجف فزعاً واضطراباً لدى إدراكنا بأننا

ليس لم نهرع لمساعدته فقط، بل إن ظلنا الناتج عن غضبٍ كنا نعتقد أننا نجهله، هو الذي اقترف الجريمة. أو إن ذاك الهذيان لا يصيب إلّا بعضاً منا فيتوجب علينا الابتعاد عن باقي البشر بصفتنا ممقوتين؟

الواقع أنني وكلاوس لم نتصرف يوماً كصبيين يتبادلان الصور أو يروي كلاهما أحلامه للآخر، لكنني متأكد أنه هو وبيلمر وآخرون لن أذكرهم الآن، غرقوا في مستنقعات موحلة في منامهم ثم قاموا بتطهيرها ساعة اليقظة، بمجرد تحريك الجفنين، ولا علاقة لذلك بتاتاً بصورة البراءة أو الطيبة البلهاء.

كما أنني متأكد أن الكثيرين من الذين يقرأون هذه الأسطر تراودهم أحلام رذيلة لا يجرؤون على الاعتراف بها حتى لأنفسهم. لم نضع إذاً على وجوهنا قناعاً ملائكياً وندّعي البراءة؟ أن نتصرف وكأن شيئاً لم يكن (وكأن لا شيء يحدث لنا، وكأن لا شيء يصيبنا ويهمس داخلنا ويمزقنا)، هو ضروري مثل الزيت الذي يحتاج إليه محرك آلة تآكلها الصدأ. لكن أيجوز أن نستنكر المحرمات علماً أننا نتشارك فيها بطريقة أو بأخرى؟ أنا أتحدث طبعاً عن

أحلام الرجال فقط، وليس عن تلك التي تراود ذلك الجنس الغامض الذي يحتفظ بأسراره في خزنة بطنه: تلك المخلوقات المسيّجات كدمى «الڤيوليت» وڤيوليتا وإيلينا وإيزابيل.

الفصل السادس

قد تتهمني إحدى المناضلات لحقوق المرأة بمقارنة النساء بالدمى واعتبارها أداة لممارسة الطقوس. على العكس. لطالما طمحت دمية «الڤيوليت» أن تصبح امرأة. إنما امرأة فريدة في نوعها طبعاً: حجم كحجم المرأة البشرية، مع جسد رقيق وعذري. كانت دمى «الڤيوليت» مراهقات أزليات على تقاطع بين مملكتي السماء والأرض: يكفي أن تنظر إلى عينيها اللتين تبدوان مغرورقتين بالدموع، لا بسبب قزحيتها الزجاجية، بل لخيبة أملها حين لا يلمسها الرجل الذي اشتراها ولم يجرؤ على اللعب بها.

خصائصها الجسدية مثل نزف الدماء وانبعاث الحرارة منها وبشرتها الرقيقة كبشرة الأطفال، كلها كانت تثير رغبة أولئك الرجال الذين وصلوا إلى قعر أحلامهم السوداء،

آملين أن توفر لهم دمى «الڤيوليت» فرصة اغتصاب صامت... لا تبعات له. وبفضل دمها العذري الذي يسيل من زهراتها المتفتحة بفعل تحرك الرغبة، كانت مختلفة جداً عن سابقاتها التي يمكنني الآن ـ وإن كنت لاأزال أعجب لتطور علم زهرات الرغبة ـ أن أصنفها ضمن عائلة «دمى ـ زهور الشر»: دمى «الأرطنسيا».

في تلك الفترة، لم نكن لا أنا ولا كلاوس قد سمعنا بتلك الدمى أو بمصممها: المدعو أوراسيو ارناندیس، الأخ غير الشقيق لكاتب من الأورواغوي كان في الماضي عازف بيانو جوالاً: فيليسبيرتو ارناندیس الذي حصلت بصعوبة بالغة على كتاب له نشر عام 1947 من بائع كتب مستعملة وسط المدينة. أجهل إن كان الفن هو الذي أراد محاكاة الحياة أو الحياة هي التي أصرّت على أن تشبه الفن. هل أوراسيو هو الذي تأثر بروايات أخيه الجنونية إلى حدّ الهذيان، فصمم دمى «الأرطنسيا» التي وصفتها الصحافة آنذاك بأنها «تحوير جديد للخطيئة الأصلية»، أو أن الكاتب فيليسبيرتو هو الذي جسّد هذيان الأخ غير

الشقيق في رواية بعنوان «دمى الأرطنسيا» التي لم يتبق منها إلّا الاسم بعد أن التهم حريق كل النسخ في مطبعة أحد أحياء مونتيفيديو، حيث كان فيليسبيرتو أودع النسخة الأصلية الوحيدة.

(توجد نسخة بأسلوب مختزل أعاد فيليسبيرتو تجميعها قبل وفاته عام 1964، لكنها كانت، مثل الكثير من أفكار الأخوين الغريبة، مكتوبة بأسلوب مختزل مستحدث ـ أسأل نفسي مم كان يحمي نفسه وممن؟ ـ، فلم يتم فك رموزها تماماً. باحثون في أعمال الكاتب الأوروغويي بجامعة ريغينسبورغ قاموا بجهد ووعدوا بنشر المجلد الكامل السنة المقبلة، لكنني غير متأكد من أنني سأتمكن من قراءته، إذا استطاعوا نشره أصلاً).

لكن في تلك الفترة، لم أكن أعرف شيئاً عن الأخوين إرناندیس. تم أول اتصال بيني وبين «أ.إ»، بعد أن أصبحت دمى «الڤيوليت» مطلوبة في أماكن مختلفة مثل نيويورك ومنطقة تركستان، ولم يكن بوسعنا تلبية تلك الطلبات النخبوية. عندئذ، وصلتني من مدينة سانتا لوسيا

في الأورواغوي علبة خشبية شبيهة بالتي كنا نستعملها لإرسال دمى «ڤيوليت» عبر العالم. ظننت أن أحدهم أعاد الدمية بسبب خطأ في التصنيع، علماً بأنني لا أذكر أي شكوى للزبائن من قبل. كنت على وشك تسليمها لخاسينتو ليقوم بالتصليحات المطلوبة، حين لاحظت فرقاً في تعريقة الخشب وحجم العلبة الكبير. فهمت عندئذٍ أن العلبة تحوي شيئاً آخر. وهكذا كان. عندما فتحتها، وجدت لعبة مختلفة: فبدل المراهقة باللباس المدرسي وذات الصدر الناشىء والتضاريس غير البارزة بعد (كان هذا النموذج المفضل لدى معظم الزبائن، مع بعض التعديلات في لون التنورة وتزيين الشعر ونوع الحذاء، حتى ولو كان بعضهم يختار أزياء خاصة)، كانت في داخل العلبة دمية هي عبارة عن امرأة سمراء جميلة في العشرين من عمرها بلباس سهرة وُضع على عينيها قناع أسود لامع وبدا وجهها هادئاً ومتعالياً.

عرفت الاسم بعد قراءة الرسالة الموجّهة إليّ والمحفوظة في القفّة الصغيرة المعلقة بيديها الطيّعتين.

إلى السيد خوليان ميركادير
هذه «الأرطنسيا» من العام 1949، لاستعمالكم الشخصي.
بعد انتظار طويل. نخبكم(*)

أ.إ.

وخلافاً لدمى «الڤيوليت» الناعمة التي كانت تحتفظ بحرارة جسدية منتظمة وقابلة للتعديل، كانت تلك الدمى تتطلب وضع ماء فاتر في ثقب من الوراء للحصول على حرارة بشرية. لكن بشرتها التي تمت معالجتها كيميائياً على الطريقة القديمة كانت برقة جلد حيوان صغير، ما حملني على الشك في الخلطة التي أعدَّها كلاوس بعد أشهر من التجارب.

اتبعت حرفياً تعليمات الكتيب المرفق بدمية «الأرطنسيا» تلك، فغمست الأغشية الداخلية في محلول مالح ممزوج بالخل. عندئذ، بدت ليونة أعضاء جسمها، وشعرت أن المرسل الجهول، إن كان حقاً صانع تلك النماذج الرائعة في منتصف القرن العشرين، لا بد أنه ارتبك لدى اشتمام

(*) هذه العبارة كتبت بالفرنسية في النص الأصلي *(A votre santé)*.

عطر دمى «الڤيوليت»، تلك الحوريات التي لا تزال شرانق مصونة، بفضل الشعر المشبوك تحت البشرة الاصطناعية الذي يجعلها تحمر حياءً عند الوجنتين وشبقاً عند تلك الابتسامة الخفية والعذرية. واكتشفت لاحقاً أنني محق: أصيب أ .إ. مجدداً بالجنون بسبب دمى «الڤيوليت» البريئة، وهو لم يكن يعرفها إلّا باسمها، كما علمت في ما بعد. هو لم يحلم إلّا بعطرها، من دون علمه بسبب وجودها المرتبط بزنى المحارم.

الفصل السابع

في تلك الفترة، حين بدأت تصلني أخبار أ .إ.، لم يكن بوسعي تنبؤ عواقب تلك المراسلات. أعترف بأنني ظننت في البداية أن دمية «الأرطنسيا» المرسلة إليّ كانت إشارة تعارف من رفيق سبقني في هذا الدرب. ظننتها لمحة تواطؤ عرفتها في نظرة أستاذ التاريخ الذي بفضله اكتشفت قصة «تانتاليس» وعذاب سوزانا غارميندیا، وعرفتها في وجه كلاوس فاغنر الذي حاول تمالك نفسه حين كشفت له نتيجة أبحاثي حول الدورة الدموية، أي الحصول على بديل لخضاب الدم ما سمح لدمى «الڤيوليت» ومستخدميها بتحويل أبيات نيرودا إلى واقع، تلك الأبيات التي كانت وراء الاسم الذي أطلقته إيلينا (ولأسباب أخرى طبعاً) على أول مجموعة من الدمى وعلى طفلتنا.

كانت دمى «الڤيوليت» كفتيات لينات يبلغن من العمر

اثني عشر ربيعاً، شفاهها متفتحة كأنها تهمس تلك الأبيات التي باتت مادة إعلانية سرية: «جرّبني... من كثرة الحب، ستتخضب حياتك باللون البنفسجي». بالطبع لم يبث هذا الإعلان على التلفزيون أو الراديو. اكتفينا بتقديم بعض النماذج في معرض التجارة الخارجية في امستردام، وتوزيع بعض الكتيبات التي كانت من خلال صور وجمل كهذه، توحي بفضائل دمى «الڤيوليت»، أكثر مما كانت تشرحها. بعض الأغبياء اتصلوا بنا ظناً منهم أن نماذجنا كانت نسخة جديدة عن تلك الدمى التي يمكن نفخها والتي ظهرت آنذاك في السوق قبل سنوات. لكن ثمن دمى «الڤيوليت» أحبطهم على الفور: فهي لا تلبي إلّا أذواق هواة تلك الدمى وإمكانياتهم المادية.

يمكنني تخيّل القدرة الكبيرة التي يتمتع بها من يعمل دائماً في السر، إلّا أنني أجهل كيف علم أ .إ. بوجود دمى «الڤيوليت»، لأنه كان معزولاً في مصح في سانتا لوسيا في الأوروغواي. آنذاك، لم يكن أحد ليتخيل أنه بعد بضع سنوات، ستؤمن شبكة الإنترنت بحاراً واسعة من المعلومات وشتى أنواع الجنس الافتراضي الذي ليس من

شأنه إلّا تعميق الجرح والتأكيد على غياب المرغوب فيه وسحره الذي لا يعوّض. كان من الصعب معرفة منشأ دمى «الڤيوليت»، إنما غير مستحيل، حتى بالنسبة إلى عجوز مثل أ .إ. الذي لم تنطفىء رغباته بل غرقت في سبات عميق. وهكذا، بدأت تصلني رسائل وطرود غريبة من ذاك الشخص المجهول المدعو أ .إ.

هنا، في تلك الجنينة حيث أتنزه بين اللعب والذكريات والأوراق وما سميته من قبل «جوائزي» ـ مثل دمية «الڤيوليت» المحرّمة الأولى و «الأرطنسيا» ذات القناع الأسود اللماع، أخرج إحدى هذه الرسائل، المطبوعة بإتقان على آلة كاتبة بيد ذاك الرجل الذي كنت سأعرف أهميته تدريجاً.

سانتا لوسيا، الأوروغواي
التاسع من أيلول/سبتمبر 1989

عزيزي السيد ميركادير المحترم،

لقد تابعت، تارة بلا مبالاة وطوراً باهتمام، التحولات في هذا العالم الذي لم يعد يفاجئني إلّا في مناسبات معدودة. منذ أن توفيت زوجتي ماريا، ومنذ أن انتهزت

الحكومة الأوروغوية فرصة وجودي معزولاً في المصح وقامت بتحريض من «مجلس الحشمة والحق» بتدمير معمل دمى «الأرطنسيا»، اضطررت لتحمّل فترات طويلة من التفاهة الأخلاقية. برزت في تلك الفترات فقط رواية ذاك الرجل الذي أطلق العنان لرغباته قبل أن يلجمها، أعني البروفسور أومبرت في رواية «لوليتا» الرائعة، كما برزت أيضاً تلك الدمى المنحرفة والمجنونة للفنان الألماني الحزين هانس بيلمر، التي كانت نوافذ مطلة على الهاوية (لم تصل مجموعات صوره إلى الأوروغواي حتى الستينيات، إلّا أن أحد معارفي تمكن من الحصول على النسخة الفرنسية التي لا تزال على طاولة بالقرب من سريري).

لكن بشكل عام، أمست أيامي هادئة كمياه النهر، في انتظار أن تدخل سمكة أحلامي الذهبية الكهف ولا تخرج منه أبداً.

إلّا أن المياه هاجت مجدداً وبغتة. منذ بضعة أشهر، وصلتني أخبار عنك وعن الدمى التي تصنعها. ظهرت دمى «الفيوليت» الطاهرة، آتية من أحلام سحيقة كالهاوية، مثل زهر طاهر لا يرحم... آه! أتخيل رائحتها المنبعثة من

ينبوع سري. لا أعرف كيف سأهرب من مقبرة الأحياء هذه: أمسيت عجوزاً، هدرت ثروتي، ومعارفي لم تعد مثل ذي قبل، لكن لي رغبة أخيرة: أن أمتلك إحدى فتياتك وأعريها بأناملي.

كما في أول مرة قرأت تلك الرسالة، ارتجفت يداي مجدداً. الشغف يصبح معدياً حين يوقظ فينا مرضاً مستتراً اعتقدنا أننا قضينا عليه.

الفصل الثامن

لا أدّعي إقناع أحد حين أقول إنني سعيت من خلال دمى «الڤيوليت» إلى أطفاء شغف كان يلهب أحشائي، بدلاً من توجيهه إلى من أشعله من دون رحمة، أو إنني أردت مساعدة آخرين على إنقاذ أنفسهم، على طريقتي.
«الرغبة لا تموت أبداً... نحن نموت أولاً»، هكذا كتب لي أ .إ. في إحدى المرات. وأضاف مستبقاً أفكاري: «على الرغم من عدم جرأتنا على البوح بذلك، فإن لكل شغف مصدراً واسماً قريباً منا. أحياناً، عندما أتخيل نعومة صغيراتك الوقحة، أتساءل ما الرابط بينها وبينك. أعرفت بالطبع منذ البداية أن «ڤيوليتا» هو اسمها الحقيقي (الاسم الخاص بكل شخص، بعيداً عن الغموض والمظاهر). «ڤيوليتا» المنتهكة حرمتها إلى الأبد. أنا على حق، أليس كذلك؟».

كان كلاوس الذي أطلعته على المعلومات حول أ .إ.

ودمى «الأرطنسيا» من دون الدخول في التفاصيل، يستغرب عادة الأوروغويي في إرسال الرسائل والطرود كل أسبوعين أو ثلاثة. «حتى ابنتك لا تراسلك على هذا النحو المتكرر». كان يكلمني في إحدى المرات وهو يدور حول مكتبي، ليرى ما إن كنت سأدعه يلقي نظرة على العلبة الصغيرة التي وصلت تواً.

صحيح أن رسائل ڤيوليتا واتصالاتها بي أصبحت نادرة منذ أن قررت أن تتخصص في هندسة المناظر الطبيعية في جامعة مانشستر، بعيد محاولة إيلينا الاتصال بها مجدداً، وهذا ما كانت ترفضه ابنتنا رفضاً قاطعاً، على الرغم من إصراري على أن تستمع إلى والدتها على الأقل. لكنني لم أكن بحاجة حقاً إلى تلك الاتصالات والرسائل: من الأفضل أن تبتعد المسافة بيننا، وأن يغيب الاتصال الذي كانت تعتبره هي أيضاً، ولسبب غامض، أنه ينطوي على أثر مذنب.

صحيح أيضاً أن كلاوسْ كان محقاً: كان أ .إ. يصر على التواصل معي، على الرغم من إجاباتي المهذبة إنما المتحفظة. قررت فتح الطرد أمام كلاوس، ربما لأظهر له ثقتي به. كانت علبة مجوهرات مصنوعة من الجلد. ما إن

فتحت القفل الصغير حتى رأيت ورقة بيضاء مطوية مطبوعة بأسلوب أ .إ. المعتاد وكتب عليها جملة غامضة تتحدث عن أزلية الرغبات. وتحت الورقة كان غلاف من المخمل الأسود يحوي بطاقة بريد. ما إن أخرجتها حتى بهرني الوجه الذي ظهر على الصورة لبضع دقائق. وحين تمكنت أخيراً من استعادة رباطة جأشي، كانت نظرة كلاوس الزرقاء قد رأت البطاقة وهي تحدق إلي وكأنها تريد تشريحي.

سألني أخيراً بصوت متردد: «أترى أخبرته... عنها؟».

ونفيت بإيماء من رأسي.

تابع يسأل وقد ابتعد عن المكتب بخطى متوترة: «إذاً كيف عرف بالأمر؟». صحيح أن كلاوس لم يعد شاباً، لكن السنوات زادت من قدرته على امتلاك أعصابه، باستثناء لحظة الارتباك تلك حيث ظهر التوتر لا بل القلق في نظرته.

وأردف وقد احتدت لهجته: «هذا الرجل مجنون تماماً... لكنه يراقبك، ويراقبنا... وإلّا كيف تفسر هذا؟».

أما أنا فكنت أتمتم: «لا أعرف، لا أعرف»، في محاولة لتهدئة هيجاني الداخلي.

فعلى الرغم من شعوري بأنني أسيرُ تيارات سرية ودوامة جشعة، لم أستطع خداع نفسي وألّا أعترف بشعوري بالفرح، لا بل بالنعمة لإدراكي أن أحدهم يعرف أفضل مني ممرات روحي السرية. إلّا أن الشعور بالاستغراب لم يفارقني.

نظرت مجدداً إلى بطاقة البريد. كانت صورة لفتاة شبه مراهقة، جالسة على شاكلة لوتس، وكانت أجزاء من جسدها العاري مغطاة بشرنقة بيضاء مصنوعة من الريش الصغير، تم إلصاقها على الورقة بتأن حرفيّ. كان من الواضح أنه يكفي لأحدهم نفخ الريش، حتى تنكشف زهرة براءتها المتفتحة التي لا مثيل لها، لكن بسبب وجود كلاوس إلى جانبي، لم أجرؤ على القيام بهذه الخطوة. أتذكر أنني رأيت صورة مماثلة في فيلم ألماني قديم، لكن الفرق في هذا الفيلم، أنه يتم الكشف عن ساقَي مغنيّة كاباريه حين تنفخ مجموعة من الطلاب البطاقة. كان اسم الفيلم «الملاك الأزرق»، لكنني لم أتذكره إلّا بعد أن

انصرف كلاوس فحاولت نفخ صورة ذاك الملاك الأزغب، الشبيه كثيراً بابنتي ڤيوليتا ذات الاثني عشر عاماً. كان مكياجها يبرز عمق نظراتها وشعرها كان مصفوفاً على طريقة موضة العشرينيات، فتبدو كصورة في مجلة جنسية قديمة.

قلت أخيراً لكلاوس الذي كان لا يزال يتفحصني بنظراته الحادة: «لا يمكن أن تكون إلّا مصادفة. من الواضح أنها بطاقة بريد قديمة».

أجاب: «نعم... لكن يمكن أن تكون مصادفة مقصودة».

«عزيزي كلاوس، أ .إ. شخص عجوز، لم يختلق مثل تلك المصادفة؟ أضف إلى ذلك، كيف له أن يعرفنا، أنا وڤيوليتا الحالية، لا بل ڤيوليتا الصغيرة؟».

نظر كلاوس مطولاً إلى البطاقة، حيث كانت تختلج رقة الفتاة كما الريش الأبيض في انتظار نفخة تغمرها بالرغبة. ومن دون أن يجرؤ على النظر إلى البطاقة عن قرب، قال ونظرته الشفافة تحدق إليّ كتحذير مسبق:

ـ «هذا بالتحديد ما يجب أن يقلقك».

لكن ذلك ما لم يقلقني بالتحديد.

الفصل التاسع

كيف تنسج الرغبة التي يستحيل الإفصاح عنها؟ ربما بالطريقة المتأنية ذاتها التي تحاك مِجلّدَة القصاص. النظرة والروح مشدودان كالحبل لالتماس الانين الصامت المنبعث من جسد كبرى خطاياه هي براءته. قد يبدو هذا الكلام متناقضاً بالنسبة إلى بعض القراء (إن كان أحدهم لا يزال يقرأني)، لكنني على يقين أن بعض الأجساد والأشخاص متهمون بالبراءة: هم أولئك الذين أطلقوا العنان لغريزة غامضة لا شكل لها ولا يمكن التخلي عنها.

أعرف أن كلامي سيبدو دفاعاً غير مسؤول عن النفس، أو تبريراً جباناً لشخص عاجز عن تحمل مسؤولية أفعاله وتبعاتها. أقول لمن سبق أن حكم عليّ وأدانني: عليك أن تعاني بلحمك ودمك التوق إلى أكل فاكهة لم تنتهك حرمتها، جذابة إلى حد الفحش. أو عليك الاعتراف بأنك تسعى وراء نفحات عطر لا يقاوم من تلك الدماء الدافئة العذرية التي تجري في أجسام فتيات محبوبات منذ ما قبل

تاريخ الشغف، حين كان من السهل الكشف عن صفة الحنان الأبوي لدى الوالد الصالح أو العم العاشق أو الشقيق المتيّم... الفرق بين شخص وآخر هو مجرد طيف، هو لحظة أزلية يتجلى فيها البهاء الأكثر إشراقاً والجنة الأكثر روعة وفظاعة، حين يصبح من غير الممكن الرجوع إلى الوراء.

هكذا تنسج الرغبة التي يستحيل الإفصاح عنها، بالطريقة المتأنية ذاتها التي تحاك مِجلدَة القصاص.

الفصل العاشر

قد أدّعي أنه خلافاً للمنطق (لكن هل ارتبط الشغف يوماً بمنطق غريب عنه؟)، تركتنا إيلينا ورحلت مع أستاذ المسرح في مدرسة ڤيوليتا، تاركة ابنتها الحبيبة بين ذراعي. كانت ڤيوليتا على وشك بلوغ الاثني عشر عاماً. أتذكر تلك الحادثة جيداً لأنها أتت بعيد نهاية السنة الدراسية، حين ظهرت صغيرتنا في ذاك المشهد المسرحي المليء بالجنيّات والعفاريت، متنكرة بلباس يبرز خاصرتها، وظهرها الصغير من خلال فتحة دائرية في الخلف، عارياً متموجاً بأناقة وإثارة وصولاً إلى عنقها الشامخ، فيما بدَت مؤخرتها كالبرعم.

لم أكن قد لاحظت من قبل جسمها الذي بدأت تعتريه قمم ومسطحات، أو غمّازاتها الناعمة، وقلت لنفسي فيما كانت إيلينا تضع فوق رأسها تاجاً من زهر البنفسج أعدته للمناسبة: «ستبلغ حقاً اثني عشر عاماً...». لا بد أنني تمتمت تلك الجملة بلهجة تعجب، لأن إيلينا التي بدت

عليها علامات فخر وحزن في آن، ضمت ابنتها فجأة بين ذراعيها.

أبعدتها عن يدي التي كانت تتردد في لمس النجمة في أعلى ظهرها المتألق كالكوكبة، حيث كانت غيمة من الزغب تزيّن عنقها الطفولي الجذاب كالمغنطيس. همست إيلينا: «بدأت المعجزة... ليتك تبقين دائماً على تلك الحال». آنذاك اعتبرتها لحظة حنان أمّ تجاه ابنتها التي بدأ مسار الحياة الطبيعي يبعدها عنها. أخرَجتُ كاميرا تصوير من الثياب المكدّسة في الغرفة التي تحولت إلى حجرة لتجريب الملابس، وابتعدتُ قليلاً لالتقاط صورة الجنّية الصغيرة. تذكرت الصورة الأخرى المحفوظة في العلبة من خشب «الأولينالا»، حيث إيلينا الصغيرة وصديقتها «ڤيوليتا» تمثلان دور المرآة الواحدة للأخرى، فاقترحتُ أن ألتقط صورة مماثلة للأم وابنتها. لكن إيلينا رفضت رفضاً قاطعاً «لا ضرورة لذلك، ستكون لكل «ڤيوليتا» مكانة خاصة في قلبي. وأنا لم أعد جنيّة منذ وقت طويل». فاجأني جوابها.

لم أعدُ أكترث لإيلينا منذ فترة طويلة وارتبكت للهجتها الجدية التي كانت تنذر بحدث حتمي. لقد أمست سنوات

الزواج تعايشاً يسوده الاحترام إنما أيضاً الجفاء. اضمحلّ الشغف، فلم تعد إيلينا توقظني وتنثر أبيات الشعر على صدري (ولا حتى للتعبير عن ألمها كتلك المرة بعيد زواجنا حين تشاجرنا، فردت عليّ بتلك الكلمات لنيرودا «يا حباً مريراً، يا زهرة بنفسج مكللة بالشوك...»). كانت الواجبات العائلية تثقل كاهلنا، فكانت الزيجات والعمادات وأعياد الميلاد للأشقاء وأزواج الأشقاء وأولاد الشقيقات وأزواج الشقيقات ووالديها وأمي حملاً كبيراً، دون أن أنسى نشاطات ڤيوليتا الصباحية وتلك الفنية بعد الظهر وصفوف السباحة وإصابتها بالحصبة والتهاب اللوزتين.

في تلك الفترة، بدا لي من الطبيعي أن تبحث إيلينا عن آفاق جديدة. نفضت الغبار عن شهادتها التعليمية وبدأت تعطي دروساً في المدرسة التي كانت ترتادها ڤيوليتا. ثم قامت بعمل يستحيل أن أفعله: كانت تنضم مرة في الأسبوع إلى حلقات علاج جماعي أوصتها بها شقيقتها إيزابيل التي كانت تدرس آنذاك علم النفس في الجامعة، تماشياً مع الموضة في تلك الفترة. كنت أنظر إلى كل

تلك التغيرات عن بعد، معزولاً في عالمي الخاص الصامت، منتشياً بتأملي لأعضاء الدمى البلاستيكية على البساط المتحرك الذي كان يشغله مساعدو خاسينتو وغارقاً في الأفلام الصامتة برفقة كلاوس وبعض المغامرات مع المومسات في حي «فلور»، اللواتي كن أصغر سناً من بائعات الهوى في حي «ميرسيد»... غارقاً أيضاً في الأحلام، أعني حلماً بالتحديد، ذاك الذي قلت عنه من قبل إنه يلخص وجودي، لا بل يعطيه معنى.

أردت الكلام عن إيلينا. لم أستطع يوماً أن أكرهها، ليس فقط لأن جداراً يستحيل هدمه ارتفع في داخلي كلما أصبت بالأذى في حياتي، فأبعدني عن الأشخاص، بل أيضاً لأنه مع مرور الزمن، فهمت أخيراً قلة معرفتي بها، وكم كانت غريبة بالنسبة إلي، بعيدة عن يدي ونظراتي. غرابة كالتي يشعر بها بعضنا تجاه بعض وتجاه أنفسنا. «الإنسان هو حلم ظل». جملة تركها لي كلاوس على مكتبه قبل أيام من رحيله. كانت جملة لشاعر يوناني لا أذكر اسمه الآن. وعلى الرغم من أنها كانت جملة غامضة ومحيرة، إلا أنني أعترف بأنها أدهشتني وكأنها تعبر عن

حقيقة ساطعة، وتلخص الإنسان بكل تناقضاته وحيرته وعدم وضوحه، مهما كانت تلك التناقضات نبيلة أو فظيعة في نهاية المطاف.

قلت إن إيلينا بدأت تشارك في حلقات علاج جماعية. في البداية، حين كانت تظن أنها تسيطر على نفسها، كانت تخبرني بما يحدث معها. لكن مع بدء ظهور الهواجس والأشباح، اختارت الصمت. في آخر مرة كشفت لي أسرارها، شعرتُ بأنها بدأت تسلك مساراً حتمياً. خفتُ آنذاك، ربما لأنني استشعرت في ذاك المسار قوة لمستها في داخلي حين شاهدت صوراً في كتاب بيلمر حصلت عليه بصعوبة من المكتبة الفرنسية في المدينة بعد انتظار دام أشهراً. كنت أعجبتُ سابقاً بصور متفرقة للفنان الألماني، أما ما شاهدته في الكتاب... فجعلني أقف مذهولاً وضعيفاً أمام هذه الصور التي كانت تمزق قلبي. صور لدمى مراهقة، ممتلئة، مفككة، مقطعة الأعضاء، مضطربة بسبب رغبة لا ترحم ولا تهدأ، رغبة لامتناهية وغامضة مثل طعم الغريزة الفاتر والحاد في آن.

كنت أتصفح الكتاب الضخم في معمل الدمى. بعد بضعة أسابيع، قررت إشراك كلاوس في تقليب صفحاته المحرمة، عارضاً عليه الصفحات التي يمكن النظر إليها فقط. صورة بالتحديد آثرت عدم كشفها له أو لغيره، وقد بقيت في ذاكرتي مرتبطة إلى الأبد بسر إيلينا الأخير، المرتبط بحقيقة ظهرت من ماضيها بعد أن كانت مخبأة في علبة «الأوليناليا» الصغيرة، على غفلة منها. فُتِحَت العلبة، فانبعث منها عطر فاسق لا يرحم. تلك الليلة، التجأت إيلينا المضطربة والضعيفة إلى ذراعي، وهو ما لم يحصل منذ سنوات ولن يحصل في ما بعد. لا أستطيع سرد قصتها كلمة كلمة بسبب العواطف المتناقضة والصور المشوشة في البداية ثم الواضحة إلى أقصى الحدود التي كانت تزرع في داخلي قلقاً لذيذاً لا يحتمل. صورة بيلمر تلك، من بين كل صور الدمى، كانت صدعاً لا يمكن سبره ينزلق فيه هيجان قلبي.

وقالت لي إيلينا حسبما أذكر ما يلي:

«لا أدري من بدأ بالكلام، لكننا شرعنا فجأة بالحديث عن الطفولة والمداعبات مع الراشدين. الملامسات والقبل وأحياناً أشياء أخرى. كانوا في معظم الأحيان أقرباء

نحبهم. الكل في المجموعة عاش تجربة مماثلة، ومن بينهم من أصبح هو المتحرش لدى بلوغ سن الرشد. الكل تكلم باستثنائي. على ما يبدو، كنت الوحيدة التي نجت. حتى أنا كنت أعجب لبقاء ذاك الباب مغلقاً. وبالفعل كان الباب موصداً. ما إن اجتزتُ عتبة هذا المنزل ـ كنتَ قد أهديتَ ڤيوليتا تواً أحدث لعبة لديك، حورية في فقاعة من مياه البحر، وكانت هي تطبع القبلات على وجنتيك ـ حتى فُتح الباب الآخر. عندئذٍ تذكرّت. على مدى عشرين سنة، بقي سراً محفوراً في داخلي. كان مجرد حلم غير واضح المعالم، بدأ بلعبة مسليّة ثم مؤلمة، قبل أن يتلاشى كالسحر. ربما أرَدتُ نسيانه لأنني أعترف بأنني شعرت بداية بالمتعة: كانت سعادتي لا توصف ولا تعوّض. لا يمكنني أن أكشفَ لك من كان. ما أقوله هو أنني أفهم الآن لماذا لم أدعك يوماً أن تقترب مني من الخلف، وأن تمارس الحب معي بهذه الطريقة».

أذكر أن صغيرتي إيلينا كانت ترتجف. حاولت أن أهدّىء من روعها قدر المستطاع، ليس كزوج بل كأب حنون وضعَها في السرير وغطّاها وأعطاها بعض المسكنات لتتدثر بغطاء اللاوعي الرقيق. بقيت معها في

الغرفة، وراقبت تنفُّسها غير المستقر بداية إلى أن هدأ تدريجاً. أسدل الليل ستاره وتسللت الظلال من النافذة المطلة على الحديقة. لكن في داخلي، ظلَّ بريق الصدع يناديني. وهذا الصدع هو أبعد من صورة بيلمر المثيرة للاضطراب وأبعد من اكتشاف إيلينا وأبعد حتى من ذكرى «ناتي» البعيدة، وهي أول فتاة رأيتها عارية وممزقة إلى حد الألم. هذا الصدع كان فماً وهاوية. ابتسامة تختزن الأسرار وجرحاً بالغاً. سمعتها تهمس بصوتها الأشبه باللاصوت تلك الكلمات الآتية من غابة بعيدة: «وحدها الأحلام هي الصامتة، رجاءً لا تستيقظ». لكن بالطبع، كنت قد استيقظت.

الفصل الحادي عشر

إن كان «الانحراف» هو ما يؤذينا من دون أن يدعنا نشيح النظر، فكيف نسمي ذاك الشيء الذي لا يطاق، الذي يحدق إلينا من دون أن نتمكن من النظر إليه وجهاً لوجه، من دون أن نتحمّل تأمله؟ لكن ما إن تمسّنا تلك الرؤية وإن كانت غير مكتملة أو غير مطلقة، حتى يحكم علينا إلى الأبد بإعادة تركيبها مرة تلوَ الأخرى على شاشة الذاكرة السوداء التي تلاحقنا بصمت. أذكر الآن تلك الصورة الأخرى لبيلمر التي لم أنظر إليها يوماً إلّا ارتعشت: ذراعان مفككتان من جسم دمية، أعيد ربطهما معاً في مزيج جديد من البراءة والفحش. لا تظهر لي تلك الصورة إلّا حين أغمض عيني وأتخيّل كل تفصيل على حدة: تارةً أرَكّز على اليدين الصغيرتين المثقوبتين بنقرات صغيرة وعلى طلاء الأظفار شبه الممحو على الخنصر، وطوراً ألامس البشرة الناصعة البياض لباطن الساعدين

المخفي على الدوام، وأحياناً أخرى، أشتم كلاً من الإبطين وأقول لأطمئن نفسي: «هاتان مجرد ذراعي دمية».

من النادر جداً أن أجرؤ على التفكير في ذاك المفصل الداخلي الذي تكوّن بفِعل تلاق جنوني للكتفين الناعمتين والمدورتين اللتين أصبحتا شيئاً آخر. كلا، لا أنظر إلى العمق السحيق للجرح المتألق الذي يولد عند انصهار الذراعين المفتوحين، إنما أشيح النظر في العتمة وأستمع إلى الشلال المتساقط بصمت وإصرار. ثانيتان أو ثلاث يبدو فيها العالم وكأنه حبس أنفاسه، وكأن صورة ضوئية حلّت مكان الذاكرة، لا يصدر منها إلّا صوت بعيد ودائري: لا أمل في بلوغ الجنة بعد اليوم. أُجبَرُ على لزوم الصمت وقد حل عليّ هذا السيلان وغياب الصوت كالنعمة. لكن النظر إليها وجهاً لوجه أو تأملها سيكون مثل الاستسلام للموت: أي الالتفات إلى مرآة الهاوية والنشوة.

لكن سبق لي أن التفت. وقتئذٍ، تسارعت دقات قلبي كسيارة بلا فرامل وصلت إلى حافة الهاوية وعلى وشك أن ترتمي في الخلاء: دقات متصاعدة لا تعرف حدوداً ولا

حياءً ولا وجعاً. هنا بالتحديد ينتفي الحياة والموت والمبادىء والخير والشر لنغدو عالماً صغيراً منهاراً، ناراً غامضة، شغفاً متفجراً من الداخل.

هذه المرة فقط، وقبل أن تمسي شفتاي رماداً، سأجرؤ وأبوح بالأمر.

في الخارج كان المطر يتساقط.

في الخارج كان المطر يهطل بقوة... أخطو خطوات ويدي تدفع الباب،

في الخارج كان المطر يتساقط وفي الداخل كان الضباب وصوت الشلال الآتي من الحمام يكتم خطواتي وصوت الباب الذي فتحته يدي.

تساقط المطر وصوت الشلال الآتي من الحمام يختنقان أيضاً تنفسي.

تنفسي، لا بل لهاثي
وسط الضباب والشلال الصامت
على ستارة المغطس
لا أحد في المنزل سوى أنا والصغيرة
وسط الضباب والمطر

معزولين عن العالم كما في حلم غابة.
جسد كالبرعم تنتهك حرمته لمسة ماء
وأنامل مبللة تسعى أيضاً إلى اختراق
بشرته.
ومن كثرة اللذة كان الجسم الصغير
يرفع ذراعيه ويعقد يديه
تحديداً عند ذاك الجزء المعروف بـ «المعصم»(*)
حيث ينشأ الجسم منذ البداية، حيث يختار من يريد
الانتحار وضع شفرة السكين
الدمى المقيّدة بشكل خفي
إلى عمود لذتها في انتظار انقضاض ماء الغرام عليها.
في الخارج
كان المطر يهطل كالشلال.
في الداخل
أيضاً
النظرة مزّقت غشاء الضباب والستارة
الجسم الطري الناعم أيضاً

(*) كلمة «معصم» بالإسبانية *muñeca* تعني أيضاً دمية.

تمزّق فجأة. أفاض قطرات عنيفة ملطخاً المغطس باللون الأرجواني
في الخارج كان المطر لا يزال يتساقط كالشلال.
في الداخل
أصبح المطر أكثر صمتاً.
كان فيضاناً.

الفصل الثاني عشر

نظرة واحدة تكفي ليحكم على مخلوقين.

ليتعارفا ويلمس أحدهما الآخر، ليكشفا كلمة السر، ليتحاورا ويصمتا ويصرخا بلغة الخطيئة التي لا تحتاج إلى كلمات... ليتشاركا في رابط الذنب غير القابل للفسخ والذي لا يقاوم، الذنب النابع من بِئر الرغبة العميقة التي ما هي إلّا جوع وغريزة. نظرة واحدة تكفي فقط. ليس أكثر. ليهلكا ولإنقاذ نفسيهما، إلى الأبد.

الفصل الثالث عشر

قلت إن المطر كان ينهمر في الخارج. فجأة، اخترق صوت الرعد الضباب والغابة. بإصرار وتكرار. كانت إيزابيل. اتصلت ڤيوليتا بها على عجل. قالت لها إنها أصيبت بجرح.

ما إن وصلت الزائرة حتى قالت لي وهي تخلع عنها المعطف المبلل وترميه بين ذراعيّ: «أنت مدرك لِمَ يحصل معها، أليس كذلك»؟

كنت مصاباً بحالة ذهول. لم أفهم عما كانت تتحدث. بفعل المطر، كان شعر إيزابيل الأملس قد التصق بوجنتيها، ما أعطى وجهها النضر ملامح طفولية. تذكرت إيلينا وڤيوليتا. لم أدرك يوماً كيف يتجلى الشبه بين الثلاثة ليس في الملامح فقط بل في صفة «لاجسدية» كالابتسامة التي ترتسم على شفتيّ إيزابيل الممتلئتين حين تؤدي دور الخالة الغاضبة وهو دور يليق بها. تذكرت أيضاً تألقاً

مماثلاً لدى مجموعة من الدمى: إنه سحر «النساء ـ الفتيات» المتجلي في ڤيوليتا الصغيرة والمنبعث منها على الدوام. اضطررت إلى تجنب النظر إليها. كان بيلمر محقاً حين جمع في ذراعين مادة الرغبة المتوهجة: غريزة غير منضبطة يمكن أن تنطلق من أي مكان.

كان معطف إيزابيل يتقطر بين ذراعي. قمتُ بتعليقه في المدخل وتمتمت:

ـ لا أعرف عما تتكلمين...

ارتسم الازدراء على شفتي إيزابيل:

ـ «أنتم الرجال دائماً على غفلة مما يحدث... إنها العادة الشهرية! أليس ذلك واضحاً؟ أين ڤيوليتا؟».

تذكرت ضباب الغابة الذي لا يزال دافئاً ومبللاً على أطراف أناملي وهمست:

ـ في الحمام.

وكأن إيزابيل لاحظت الوجوم على وجهي، ففي اللحظة التي اتجهت فيها نحو الدرج، عادت إليّ وأصلحت ياقة

قميصي ثم طبعت على وجهي قبلة طفلة تحسب نفسها راشدة.

ـ «حين أتذكر كم كنتُ أرغب في أن تكون خطيبي أيام الطفولة، والآن... أنظر إلى نفسك».

كانت تلمح إلى لحيتي التي لم أحلقها منذ أيام وقميصي المهمل ونظرات اليتيم البادية على وجهي منذ أن تركتني شقيقتها.

لم أستطع الردّ عليها. بالكاد كبَتّ أنيناً كنت أعرف أنه لا يتعلق بإيلينا فقط. نعم، كنت وحيداً وضعيفاً في مواجهة عذابي أكثر من أي وقت مضى. لامست إيلينا لحيتي بطرف شفتيها وبحنان ساذج.

ـ «عليك أن تستعيد قواك. إيلينا رحلت، صحيح، لكن ابنتك لا تزال معك... إن كنت غير قادر على تربيتها بمفردك، فعليك أن تبحث عن امرأة أخرى».

شكرتها على كلماتها بابتسامة. لكن قلبي كان مكسوراً. شاهدتها تصعد الدرج، بساقيها اللينتين كساقي الفارسة التي امتطت فخذيّ في الماضي. السعادة عابرة وجرح

دائم. في تلك الفترة، قررت أن أصنع دمى «الڤيوليت» المراهقات. أن أفتحها وأجعلها تنزف. أن أحطم جسدها المقفل والكامل الأوصاف كجسد دمى بريئة، أن أمزقها محدثاً داخلها فجوة، أن أجعلها ضعيفة. ضعيفة ـ وأنا أعرف أن قلة يعترفون بذلك ـ كما يمكن لرجل فقط أن يكون ضعيفاً.

الفصل الرابع عشر

كانت هي الأكثر براءة من بين الاثنين. في البداية، خلال نهاية الأسبوع الذي كانت تذهب فيه إلى المدرسة الداخلية، وحين لم نكن نرافق العم كلاوس إلى الحفلة الموسيقية يوم الأحد في الجامعة، أو نرافقه إلى حديقة النباتات أو حديقة الحيوانات، كنا نلعب أنا وإياها بمفردنا. في غياب إيلينا، كنا نسمح لأنفسنا أن نكسر بعض القواعد من دون أن نكترث كثيراً للتبعات، كالمرة التي قررت فيها ڤيوليتا أن تأكل على الأرض، تحت طاولة المطبخ. من هناك شنت عليّ الأميرة «حرب بازلاء» بعد أن قلبت الكراسي وحوّلتها إلى مواقع هجومية. وضعت بطنها على الأرض، أمّا رجلاها العاريتان الجميلتان الباديتان تحت شورت يقصر يوماً بعد يوم، فكانتا تبتسمان مترنحتين برقة وإيقاع في كل مرة كانت تلك المحاربة الخبيرة تصيبني في وجهي المشدوه.

أو كتلك المرة التي نظمت فيها حفلة «عيد ميلاد» للدمى التي تملكها. كانت في الواقع أشبه بحفلة وداعية. كنت الفتى الوحيد المدعو إلى تلك المناسبة، بالإضافة إلى نحو عشرين دمية من مجموعتها؛ كلها دمى «ڤيوليت» قديمة وبريئة بُعثرت على الأثاث. وفيما صعدت ڤيوليتا إلى غرفتها وبقيت وحيداً مع الدمى، خالجني شعور غريب لكوني أعرف تلك اللعب حتى قبل ولادتها في القوالب. كنت نوعاً ما والدها، وكنت أستشعر الآن طبيعتها المقلقة والصامتة. الدمى جالسة من حولي، فاتحة ذراعيها ورجليها كما لو أنها تطالب بمعانقة أو تجسد حالة خاطفة من النعمة والجهوزية الدائمة. كانت أيضاً كحافظات أسرار صغيرات بدت شفتاها الساكنتان وكأنهما تهمسان: «نعرف ما يجول في ذهنك أفضل منك».

أتذكر أنه حين تخيلت سماع تلك الكلمات، خجلت وغُصتُ في نفسي فلم أجد فيها إلّا غرف حصن مهجور. حين نظرت مجدداً إلى الدمى، كانت ڤيوليتا واقفة أمامنا، وبدت ابتسامتها حين رأتني على هذه الحال كجسر من النور. جسر يؤدي إلى غابة مسحورة، حيث تحولت ڤيوليتا

إلى جنّية. أدركت بعد دقائق أنها تنكرت بزي الحفلة المدرسية الأخيرة الذي لم يعد يليق بجسمها بعد مرور عدة أشهر، أو بالأحرى أصبح لائقاً جداً لأنه كان يبرز مفاتنها الفتيّة. كانت قد قررت تقديم عرض لنا، لكن بما أنها اعتادت مساعدة أمها، لم تعرف كيف تضع الماكياج على وجنتيها. كانت تحمل علبة ماكياج إيلينا بيد، وبيدها لأخرى، كانت تشير لي بوضوح أن أقترب. شعرت بنوع من الشلل، فيما كان «تانتاليس» الصغير داخلي يكاد يطير من السعادة في بحيرته. نظرت إليّ الجنّية الصغيرة بحزن وهمست: «ألا تريد أن تساعدني؟». وكان صوتها كصدى رقيق لضعفها المطلق. لمحت بعض النقاط الوردية على طرف عينيها وبدت لي ابنتي لذيذة كفاكهة لا تقاوم. تمكنت بصعوبة من الموافقة بهزة رأس. عندئذ، اقتربت ڤيوليتا بنظرة استعلاء وبقفزة أنعشت قلبي، جلست فوق ساقي. بدأت أضع الماكياج على وجهها وأنا أرجف من كثرة الإثارة. ويبدو أنه اختلط عليها الأمر حين شعرت بحركة عن غير قصد لساقي اليمنى، فقالت لي بصوت خافت وهي مغلقة العينين، رافعة فمها قليلاً فيما فرشاة الماكياج تلامسها: «لم تلعب معي لعبة الحصان منذ

زمن». على الفور، تركتُ الفرشاة وبدأت رجلي بمحاكاة خبب الحصان، وكنت مع كل هزة أشعر بدفء ما بين ساقيها. لفت ڤيوليتا ذراعيها حول رقبتي وشرعت تضحك وكأنها تزقزق، فَرِحة لاستعادة تلك الجنة حيث لا يعرف الجسد إلّا اللذة والطهارة الغزيرية.

ومع إسراع رجلي في العدو، لاحظت أن العرق يرشح من هذه المنطقة الناعمة والرقيقة التي لا أزال أجهل اسمها، بين الأنف والشفتين، والتي ما أن تتم إثارتها حتى تبدو برعماً على وشك أن يتفتح. نعم، برغم كل براءة ڤيوليتا، كانت تشعر بالإثارة، بكل «طهارة». رأيت فيها صورة رغباتي، والجزء الذي كان ينقصني: كانت ضعيفة إنما مفعمة بالحيوية، ناعمة إنما مع مزيج من الرقة والاستعلاء، مطالبة بقوة أن يمارس أحدهم سلطته عليها. كانت هنا، بين رجلي، منتصبة وضعيفة، تشعرني بقوتي وإحساسي بالكمال. دون أن أضطر إلى لمسها، كنت مأخوذاً بمجرد التفكير في أنها هنا. في تلك اللحظة، كنا نضحك، أنا وهي، لكن الألم والجهد بدآ يشعرانني بتشنج ما، وكانت لذة الجنية اشتدت أيضاً، فأصبحت ضحكتنا الصامتة إشارة تنذر بأن هذا العدو يقترب من الهاوية.

عندئذ، أوقفتني ڤيوليتا ملجمة الحصان بغتة، وتوسلت إليّ وهي تتنهد: «يكفي يا بابا».

كانت علبة الماكياج والفراشي لا تزال مبعثرة على الكرسي قرب الدمى التي ارتسمت على وجهها ابتسامة المنتصر. أمسكت ڤيوليتا بفرشاة وبمربع أخرجته من علبة الماكياج. وبدلاً من أن تعطيني إياهما لإكمال مهمتي، وضعت لوناً براقاً على وجنتي المضطربتين، ثم على شفتي المخدرتين. كانت ڤيوليتا تضحك، سعيدة بفعلتها. تركتها تفعل بي ما تشاء. وكأنّ أحدهم رفعني وعلّق كل شيء في الخلاء: دمائي وأحلامي التي انزلقت على ركبتي والهيجان في سلسلة ظهري. خطت الجنية الصغيرة بضع خطوات إلى الوراء لتتأمل النتيجة. كانت نظراتها مناغاة جديدة حين رأتني من دون حراك إلى جانب الدمى الأخرى، وقالت بانفعال: «الآن أصبحتَ واحدة منا. الآن أصبحت ڤيوليت أخرى». وافقتها في الرأي، ففي تلك اللحظة كنت مُلكها.

الفصل الخامس عشر

في تلك المرحلة، بدأت دمى «الڤيوليت»، تلك البنفسجات الصغيرة، تزهر. كم كان محقاً أوراسيو ارناندیس حين قال إن لكل شغف حقيقي مصدراً واسماً متعلقين بشيء أو شخص قريب منا. وكم كنت سأدرك لاحقاً، بأن كلامه ليس صائباً فقط بل شاهداً على حقيقة عرفها في حياته الخاصة: لا عجب أن تكون أول دمية صنّعها. دمى «الأرطنسيا»، قد ولدت في كنف زوجته. كانت امرأة ذات نظرة جميلة وثاقبة، كما بدت في الصورة التي أراني إياها أ .إ. في المرة الوحيدة التي التقيته. كان اسمها ماريا أرطنسيا، وكان الجميع، بمن فيهم أوراسيو وأخوه فيليسبرتو ينادونها باسمها الأول. من المؤكد أن ثمة من يفضل إخفاء شهواته وراء شخصية خيالية لكن حتى في تلك الحالة، لا بد أن تؤدي بعض الإشارات إلى الحصن الخفي: إنها ملامح واضحة وشفافة على الرغم من ثخن الوشاح. على المرء التحلي بالصبر للاستماع إلى

لغة الهمس الخاصة بها. وعليه البقاء ساكناً والانتظار حتى تبسط قبتها المشفرة بالنجوم والإشارات. لكن في ذلك الوقت، حين بدأت دمى «الڤيوليت» تزهر، لم أكن أعرف شيئاً عن دمى «الأرطنسيا» ولا عن خالقها ولا حتى عن تلك المجموعة البغيضة التي تعمل في السر، التي تسمي نفسها «جمعية مؤلهي النور الأزلية». لا أريد استباق كلامي، لكن الواقع أن مناوراتهم التي سادت على مدى عصور تحت أسماء مختلفة، كانت فعالة، وإن لم تستطع إصابتي كلياً بالجنون.

(أو ربما يُثبت ذلك تمكنهم من تحقيق جزء من مآربهم معي: إدخال سمّ الشك والذنب في جسمي، وإشعال الهذيان لدى من اعتقد أنه أكثر حرية من الآخرين، فاستسلم لهذيان الاضطهاد لأنه يعلم على الرغم من كل شيء أن ثمة خطيئة يجب أن يكفر عنها. لكنني أعرف أيضاً أنني تمكنت حتى الآن من الإبقاء على خيط الصواب الرفيع، برغم النور والهواجس المطلقة والمعمية التي تهدّد بالقضاء عليّ منذ وفاة كلاوس الشنيعة).

وفاة كلاوس الشنيعة. عليّ تكرار هذه الجملة لكي لا

يفلت مني مؤشر الواقع هذا من بين أناملي. أكرر الجملة ثم أعود إلى الوراء: أعيد ترتيب المعطيات، أعثر على طرقات فرعية، أعيد تشييد الحصن من زوايا مختلفة، فأعود مجدداً إلى مدخل الغابة: قلت إنه في مرحلة معينة، بدأت دمى «الڤيوليت» تزدهر، وأعترف أنها بدأت تزهرّ دون الشعور بذنب أو خوف، منذ اللحظة الأولى التي انبلج فيها برعمها من عمق هذياني وأحشائي. كانت مجرد فكرة تخيُّلها تصيبني بالدوار. كانت ڤيوليتا عادت تواً إلى المدرسة الداخلية، وكنت أواسي نفسي بالتفكير في ملمس شقيقاتها الجامد. كنت مصاباً بحمى وحتى أحياناً بالسعادة، لشعوري بتلك الحيوية المروبصة والمبتهجة التي ترافق نشوء هوس ما: اضطراب مراهق طاهر يريد تحقيق رؤية لم يتمكن من تركها في عالم الأحلام.

كنت فاقداً للإرادة، لا بل خاضعاً لإرادة خارجية تجرفني إلى أماكن كانت موجودة في مخيلتي فقط، مع شعوري الواضح بأن ما يحدث لي مدوَّن في داخلي إنما يفيض مني كينبوع غزير أو جرح مبتسم. قمت برسوم تقريبية عديدة، إلى أن تمكنت أخيراً في إحدى الليالي،

حين اعتقدت أنني وحيد في المعمل، من رسم الجسد الذي كنت أحلم به في حجمه الطبيعي. وكالجسد الأصلي الذي كان يلهمني، كان الرسم يصل إلى أضلاعي، على بعد ميليمترات من القلب. كنت أقوم بقياسه على صدري، متخيلاً رائحة السيليكون الرطبة التي ستفوح من القالب، حين شعرت بخطوات خافتة من ورائي. لم أضطر إلى الالتفات لأعرف أنه كلاوس. بقي قلبي وأحاسيسي في حالة ترقب. كان كلاوس يراقب الرسم من خلفي. لا أعرف إن ذكرتُ سابقاً أنه برغم تقدمه في السن، كان لا يزال مفعماً بالحيوية ومستقيم الظهر، وكان أطول مني. طويل القامة ومستقيماً، هكذا كان كلاوس. بعد مرور ثوان لامتناهية، قال أخيراً:

ـ «هذا إذاً ما يشغلك طوال الوقت». وبعد برهة تأملني فيها كأنني الطفل الذي كان يجدر به أن يحميه في الماضي، أضاف: «إن أردتها بكل تفاصيلها، كما أظن، فعليك الإتيان بخراط جديد. شخص... أكثر اختصاصاً».

وافقت بايماء بالرأس. طويت القماش ووضعته تحت ذراعي، وعندئذ فقط التفت إليه. كانت في انتظاري نظرته

الشفافة التي يستحيل عدم الاعتراف لها بما كنت شخصياً عاجزاً عن إخفائه.

ـ «نعم... لكن يجب صنعها بطريقة تسمح لها بالتصرف...» (هنا توقفت عن الكلام من دون أن أعرف السبب، إلا أنني أدركت فجأة أن وشاحاً أزيل وأن ثمة خوليان مجهولاً يتحدث من فمي، كنا شخصين يجهل كلاهما الآخر وقريبين في الوقت عينه، ربما توأمين، أحدهما إلى جانب الآخر، لا بل أحدهما داخل الآخر) وأضفت: «بالتصرف كمراهقة في ريعان شبابها».

بدا لي أن كلاوس، الذي نادراً ما يصاب بالارتباك، كمن لم يتوقع ما قلته. أذكر نظرته الصافية التي منذ البداية، منذ قصة «ناتي» وانبهاري لدى رؤية أعضاء الدمى المفككة، تعرّفت إليّ مرحبة بي في عالم كان والدي وكلاوس فاغنر نفسه سيستقبلانني فيه عاجلاً أو آجلاً. لكن في تلك اللحظة، ذاك الرجل الذي كان لي بمثابة أب ثان، يسهل الاقتراب منه أكثر من الأب الأول بفضل رزانته، كان ينظر إلي بطريقة غير اعتيادية، متعجباً لرؤيتي أسلك طريق رغبات يبدو أنه توقف في منتصفها منذ زمن بعيد.

الفصل السادس عشر

في ذاك الوقت، بدت الحياة وكأنها تزهر أيضاً بالنسبة إلي. كانت المشاكل تحل بسهولة وكأن كل شيء في أحسن حال. بناء على طلب من كلاوس، كانت صاحبة محل عطور عالمية تحضر لي ألطف الخلطات لأتمكن من اختيار عطر واحد، فريد في نوعه. كانت كلارا امرأة في مقتبل العمر حافظت على خفة شبابها برغم وفاة زوجيها الاثنين والوحدة التي كانت تعيش فيها في السنوات الأخيرة. ومع العلم أنها لم تعان كثيراً مشاكل زوجية ـ وقد أمست أرملة لم تنجب أولاداً ـ، إلّا أنها كانت تعتز بمنعها أياً كان من التحكم مجدداً في حياتها. لكنها كانت تشعر بالامتنان لزوجـها الأول لأنه ترك لها محل العطور، هذه الجنة الكيميائية التي دخلتها من دون أن تحمل أي شهادة، والتي ستعتاش منها إلى آخر يوم من حياتها.

كلاوس هو الذي اقترح أن أذهب إلى هذا المحل المليء بالخزانات ذات الواجهات الزجاجية والقوارير والواقع في أحد الشوارع المتداخلة في وسط المدينة. وفي يوم كنا نقوم بالتجارب الأولى بخلط مادتي المطاط والطين البلاستيكي، قلتُ، من دون أن أدرك تماماً ما كانت تقوله شفتاي: «أشتم عطراً حديثاً ولذيذاً... لكنه يجب أن يذكر برائحة الشجر والعسل...».

كان كلاوس قد تعرف إلى كلارا في حديقة النباتات التي كان يرتادها من حين إلى آخر بعد حفلته الموسيقية في المدينة الجامعية يوم الأحد. في الحقيقة كنت أعرف القليل عنه بسبب تحفظه. كنت أكتفي ببعض المؤشرات وأستعين بمخيلتي لأفهم علاقته مع كلارا أو النساء العديدات اللواتي مررن على الأرجح في حياته. كان النفوذ الذي يمارسه هو وأبي على الجنس الآخر يثير فضولي. اعتدت أن أرى كيف يسيطران على الموظفات اللواتي كن يتعاملن معهما باحترام فائق ليس لأنهما ربّا العمل فحسب بل لكونهما يخالان نفسيهما مالكي الكون

وهو ما كانت النساء يصدّقنه. أظن أن الأمر متعلق بالجندر. النساء يعلمن (أو يعتقدن أنهن يعلمن) أن للرجال سلطة لا يتمتعن بها. لاحظت ذلك من خلال أمي لدى وفاة أبي. فقد أقامت له نوعاً من المزار في غرفتها، على الرغم من معرفتها بوجود عشيقتين في حياته، مع ظهور الحبيبتين خلال الجنازة. اختلف الأمر مع كلاوس، إذ هو لم يتزوج قط ولم يكن لديه أقرباء باستثناء أبناء عم علقوا في ألمانيا الشرقية ولم يعاود الاتصال بهم حتى بعد انهيار جدار برلين.

لكن على الرغم من وحدته، لم تكن حياته رهبانية: كان يفيض بالذكورية لدرجة كانت تفضحه، مهما حاول إخفاءها. كانت النساء ـ والكثير من الرجال أيضاً ـ يشعرن بالاضطراب لمجرد وجوده معهن. لا أنسى جملة سمعتها حين كنت صغيراً من إحدى خالاتي، بعيد تعرفها إليه: «لم أستطع النوم من كثرة ما تخيلت ما يمكن أن يفعله هذا الرجل بامرأة على الفراش».

هذا الكلام الذي كانت تبوح به إلى أمي فيما كانتا مشغولتين في التطريز، كان فيه شيء من الاحترام والهيبة،

لكن ثمة شعور لم أتمكن من تحديده آنذاك، إلّا أنه ذكرني بتصرف صديقاتي المغناج والملتبس في المدرسة، حين كن يقلن إنهن لا يطلبن شيئاً إلّا إذا أصرّ شخص آخر على إعطائهن إياه. وكان جواب أمي أكثر ما أثار تعجبي. كنت أتظاهر بالتركيز على فرضي المدرسي عند الطرف الآخر من الطاولة، لكنني سمعت جيداً كيف حاولت إخفاء ضحكة امتزج فيها شعور بالتواطؤ واللذة نادراً ما لاحظته: «في الفراش؟ أتظنين أنه سيمارس الحب معك فقط في الفراش؟»، وأسرعت الامرأتان الخجلتان واللعوبان في ارتشاف الشاي، حرصاً منهما على ألّا يلفت كلامهما انتباهي. لم تلفظا قط اسمه لكنني عرفت أن المعني كان كلاوس فاغنر. واكتشفت مع السنين ما لم أدركه في البداية، وهو أن كلاوس كان يعي سطوته على الآخرين وأقسم أن ذلك كان يخيفه قليلاً. وعلى خلاف والدي الذي كانت تغلب عليه الحماسة كالطفل الذي يصفق له الجميع حين يخطو خطواته الأولى أو يقوم بحركة ظريفة، كان كلاوس ينظر إلى الوجوه المنجذبة

إليه، فيصاب بنوع من الشلل لدى إدراكه كم من السهل أن تستسلم تلك الأرواح والأجساد له.

في إحدى المرات، قبيل وفاة أبي، اصطحبني إلى حي فلور (حي المومسات). وما إن اجتزنا ستار اللؤلؤ عند المدخل، حتى استقبلتنا صاحبة المكان.

ـ «سيد فاغنر، أتيت لزيارتنا مرة أخرى. لم أكن في انتظارك اليوم، لكنك وصلت في الوقت المناسب». كانت تتكلم وهي تشير إلى فتاة ذات نظرات ملاوصة. من الواضح أنها كانت مبتدئة هنا. حتى أنا، المبتدىء أيضاً، فهمت ذلك. كان عمرها لا يتجاوز الأربعة عشر عاماً، فرغم فستانها الذي يفضح كتفيها وفخذيها، كان جسدها وهيئتها ناعمين لدرجة بدت كملاك رقيق يصعب تحديد جنسه.

وبإشارة من صاحبة المكان، تقدمت الفتاة بحياء، بعد أن حطّت نظراتها أخيراً علينا. لكن ما إن وقفت أمام كلاوس ونظرته الزرقاء الممتلئة رغبة، حتى تحول تحفظها إلى ذهول كأن صاعقاً أصابها، وكأنها فريسة أوقفت كل محاولة للهرب وسلمت نفسها.

ـ إيريس... إذهبي مع السيد.
وهمت إيريس بالإطاعة، فأوقفها كلاوس قائلاً:
ـ ليس معي... بل معه.

وترددت الفتاة للحظة. رفعت وجهها بخفر إلى الرجل وقد بدت عليها علامات تمرد أو توسل لم تدم أكثر من ثانية، لأنها في الحال أخذت بيدي لاصطحابي إلى الطوابق العليا. والحقيقة هي أن كل ما قمنا به إيريس وأنا، بعد أن أصبحنا متعانقين في ما بعد، هو الإطاعة واكتشاف طبيعتنا ورغباتنا في آن.

حين رأيت كلارا في أعلى السلم اللولبي الذي يصل محل العطور والمختبر بمكتبها والصالون الصغير، فهمت أمرين: أن كلاوس حدَّثها عني وأنه كان على علاقة بتلك المرأة في الماضي. ما إن رأتني، حتى أشارت إليّ لألحق بها في محل العطور، الأشبه بمركب مصنوع من هواء وزجاج. وفيما كنت أصعد السلم اللولبي، كانت تصل إلي روائح كيميائية قوية أصابتني بالدوار. كنت أصعد نحو أعماق معطّرة تبينت فيها بوضوح روائح توابل ممزوجة

بعطور حمضية وزهرية، وأحياناً نفحات فجائية من رائحة خشب قيقب رطب. كان دواري يشتد حين ظهر وجه كلارا مبتسماً ومفعماً بالطيبة. وفيما كنت أمسك بيدها الممدودة لأصل الى سطح المركب، تذكرت أنه منذ فترة ليست ببعيدة، وفيما كنا نشرب الخمر بعد جلسة طويلة من العمل والتجارب الفاشلة لتصميم دمى «الڤيوليت»، قال لي كلاوس المتحفظ عادة، كمن يخبر سراً: «فتيات ناعمات وبريئات... الحقيقة أن كل النساء، بمن فيهن الأكبر سناً أو الأكثر حشمة، يتغيّرن وتتجلى فيهن مجدداً نعمة المخلوقات السماويات حين يمارسن الحب». نظرت إلى وجه كلارا وابتسامتها الوديعة، فاستطعت بسهولة أن أتخيلها تحت سطوة كلاوس، وتحولها إلى ملاك مراهق عذري، مستسلمة لغبطتها ونشوتها.

ـ «أنت تبحث إذاً عن عطر لفتاتك، أليس كذلك؟». سألتني وقد بدا عليها الخجل كما لو أنها أدركت خواطري الخفية.

أومأت بصمت وكنت لا أزال تحت تأثير العطور والذكريات. أشارت إلى مجموعة من القوارير العنبرية

اللون على مكتبها. ألقيت نظرة على الأسماء الملصقة عليها: خزامى، قرنفل، مسك، ياسمين، لبان جاوه...

قالت كلارا وهي تدعوني إلى الجلوس فيما قعدت هي خلف مكتبها: «أتعرف يا خوليان... ستساعدني كثيراً لو قلت لي ما الذي تبحث عنه».

ـ لا أعرف إن كان ذلك ممكناً، إنني أبحث عن رائحة شجر وعسل.

ـ تعني خليطاً من الغموض والحلاوة في آن...

بقيت غارقة في التفكير لبرهة. ثم قالت لي فجأة:

ـ يمكنه أن يكون عطراً من خلاصة الأرز والعنبر والليلك أو ربما... زهر البنفسج. عطور سريعة التبخر ومرهفة، وعطور مثبِّتة ليدوم المزيج... كانت العطارة تعرض عليّ معرفتها المكتسبة في مجال العطور. فتحت علبة وقدمتها لي:... وسط هذا الهرم من العطور، يأتيك أريج البنفسج الشهواني والمفقد للصواب. مع احترام المقادير طبعاً.

أصبتُ بالجمود. لم يخطر ببالي قط من قبل أن عطر ڤيوليتا، مع بعض الإضافات (الشجر والندى) هو تحديداً

اسمها، «الڤيوليت»، البنفسج. نظرت إلى وجه كلارا الذي غلب عليه الفرح لا بل السعادة لإدراكها بأن اقتراحها تمكن من إرضائي وإثارة إعجابي. وبمجرد تخيله وذكر اسمه، بدأ هذا العطر الذي كنت أحلم به يزهر في أنفي.

الفصل السابع عشر

ترى، بم تفكر الدمية حين تمارس الحب معها؟ ألا تحلم بشرتها النائمة بأنها حقاً فتاة؟ ورائحتها، التي تنبعث منها كالرمق الأخير في اللحظة الأكثر حميمية، أليست مؤشراً على استسلامها المطلق واللذة التي تشعر بها؟ كانت كلارا قد حضرت العديد من الخلطات، وفي صلبها عطر البنفسج. أما الإضافات فكانت مزيجاً ناعماً من المغنيولية والياقوتية وزنبق الوادي والياسمين والفريزيا وهي خلطات، كما سأكتشف لاحقاً، مثبتة لأريج العنبر والسنديان والفانيلا والقيقب والدراق والمسك والصندل... كل قارورة عطر تحمل بذرة «ڤيوليت» جديدة. ومع كل تجربة، كنت أقترب أكثر من مرحلة التصنيع التي بدأتها بنفسي ليلاً.

كانت مبيعات دمى «الڤيوليت» العاديات، تلك الزهرات البريئات القديمات التي كانت تصنع بالجملة لتصل إلى

فتيات يحلمن بأن يصبحن أمهات، تتراجع أمام اجتياح دمى مستوردة من الخارج. لكن تسويق دمى «الڤيوليت» المحرمات لم يكن فكرتي، ولا حتى فكرة كلاوس. هو أراد فقط عرض بعض منها في معرض أمستردام، لأنه كان يشاركني في هذه الأبوة المزهوة والمتواطئة التي كانت تحملنا إلى قضاء ساعات طويلة من التأمل في تلك الدفيئة حيث زرعت «الڤيوليت» الأولى ثم اثنتين من شقيقاتها، قبل أن آخذها معي إلى المنزل. في البداية، كنت ألبسها مثل ڤيوليتا: بدلتها المدرسية وثيابها الداخلية وحتى زيّ الجنية، لكن في ما بعد، طلبت إلى الخياطة إعداد ملابس أخرى.

كنت أنظر إلى نحو عشرين قارورة عطر وضعتها في خزنة المعمل حين أدركت أنه ليس بوسعي التوقف عند هذا الحد. كانت مواصفات دمى «الڤيوليت» تتحسن تدريجاً: يوماً بعد يوم، كانت تشبه أكثر النسخة الأصلية. عند القالب الثالث، واستناداً إلى صورة لڤيوليتا وهي متنكرة كجنية، استطاع الخراط التوصل إلى شبه عظيم: رقة وقساوة في آن. كانت الدمى تصبح تدريجاً أكثر ليونة

وأكثر تساهلاً. بات من السهل مثلاً إعادة ملامحها الملائكية في حال دفعها أحدهم إلى البكاء... كل ذلك كان أكثر من قدرتي على التحمل: أصبحت خمس دمى ولم يكن بمقدوري تلبية حاجاتها والاعتناء بكل واحدة منها. كانت تحدثني على طريقتها الصامتة: جفن يغمض بغتة، وجه يشيح تعبيراً عن رفض للمشاركة في الطقوس والألعاب. بدأت أيضاً بالشعور بالغيرة في ما بينها والشكوى إليّ. وسرعان ما فهمت طلبها السري: كان عليّ أن أعطي لكل واحدة منها أباً ورجلاً. وافقت عندئذٍ على بيعها: كانت الطريقة الوحيدة لخلق دمى جديدة، لتنشق ولو لفترة وجيزة عطر الخطيئة المنبعث منها وامتلاكها ولو للحظة من خلال نظرة. تكفل كلاوس بكل الترتيبات. بعد امستردام، بدأنا نلبي طلبات نخبوية من منطقة باتاغونيا واستوكهولم و «نيوهافين» وتركستان.

كانت شبه هدنة، مرحلة نقاهة انتقالية بعد أن استفحل الشر. لولا تلك الاستراحة الجنونية، التي استمرت بشكل غريب عجيب على مدى سنوات أمضيتها أزرع زهور الرغبة في حدائق الآخرين، لكنت وقعت ضحية الجنون.

الآن فهمت أنه لربما كان من الأفضل لو حصل ذلك. الاندفاع تلقائياً نحو الهاوية. هناك كلام لرجل قديس يقول فيه: «نموت دائماً لسبب أقل أهمية من سبب موتنا الحقيقي».

قلت آنفاً إن الاغتصاب يبدأ بالنظرة. الفتيات الثلاث اللواتي يرافقنني حتى الآن، مقيدات الأيدي في غابة لذتهن، بثيابهن الممزقة ورؤوسهن المنحنية، لا يزلن يمنحن أجسادهن ببراءة مستبدة يستحيل انتهاكها.

الفصل الثامن عشر

قلت إن الاغتصاب يبدأ بالنظرة. متى بدأت بتعذيب دمى «الڤيوليت» وأدعها تعذبني؟ في البداية كانت ڤيوليتا هي الأهم. في ما بعد، لم أستطع مقاومة الخيانة: من بين كل العطور التي كانت تعدها تلك المرأة العظيمة، كلارا، كان عطران يثيرانني تحديداً ويجعلانني أمتطي جسد زهر البنفسج الدافىء والمفقد للصواب. أتذكر أنه على الرغم من إصراري، كانت كلارا ترفض، على سبيل المزاح أن تكشف لي اسميهما. أما أنا، فلكثرة ما أربكتني خلطة العطور التي كانت تجعلني أتنشقها واعدة بالكشف عن مصدرها، لم أكن قادراً على تحديد خصوصيتها التي كانت تلهب شهوة تلك العطور السريعة التبخر. في إحدى الليالي، أتيت إلى محل العطور مصمماً على التحقق من الأمر بنفسي. نظرت إليّ كلارا بتعجب فيما شرعت أفتح علب الزيوت العطرية وأتنشقها عشوائياً.

قالت لي: «انتبه يا خوليان، ستصاب بجنون الحب...» كانت مخطئة. خلطة العطور سمحت لي فقط باكتشاف رغبة مشابهة إنما ليس أقل جموحاً: اللذة التي عرفتها كلارا مع كلاوس، الشعور بأنها فتاة صغيرة من جديد. وحين استسلمت أخيراً لاندفاعي، وكلما انقضّ جسدي عليها وعادت إلى جنة براءتها الأولى، كانت تصرخ: «قرنفل... نرجس... بنفسج بري».

وحين طالبتني دميتان فريدتان في نوعهما بهوية لكل واحدة منهما، أعطيتهما تلك الخلطة المميزة. كانت كلتاهما دميتي «ڤيوليت»، لكن كما يحدث عادة مع الدمى والنساء عموماً، طالبتا على الفور بمعاملة مختلفة. تلك التي حصلت على مزيج من المادة المطاطية وعذوبة القرنفل، تحولت إلى دمية يستحيل السيطرة عليها، لدرجة أنني لم أستطع التحكم فيها إلّا وقوفاً: حتى لو قيدتها وكممت فمها أو فكفكتها، كانت تبقي على تلك الهيئة المتعالية، وغالباً ما كنت أنحني أمام عجرفتها الجارحة لدى تأملها، بعد فعل الرغبة، عارية وغير مكتملة. وبدلاً

من أن اسميها «ڤيوليتا»، كنت أقترب منها وأهمس في أذنها لكي لا تسمع الأخريات: «استيقظي يا قرنفلتي المتمردة، هيا لنبدأ من جديد».

أما الأخرى، بشعرها القصير وتظاهرها بأنها صبي، ربما بسبب العطر الذكوري الذي كان يبعثه النرجس في أحشائها البلاستيكية، كان عليّ أن أقاصصها بطريقة مختلفة: أن أتأملها وهي تشعر بالغيرة من الصورة التوأمة التي تظهر في المرآة. من بين الثلاث، كانت الوحيدة التي لا تطيق تأمل نفسها عارية وضعيفة، أن تكون مجروحة في العمق وغير مكتملة إلى الأبد. كانت لتعشق سماع اسمها الذكوري، المرتبط بالعطر وحقها الخاص، لكن بدلاً من أن أسميها «نرجس»، كنت أناديها «التي لا اسم لها».

أحياناً، ومن دون سبب، كنت أقيّد المتعجرفات الصغيرات الثلاث معاً، فتختلط أرجلها وأذرعها وصدورها وأعضاؤها لتكوّن زهرة مركّبة وجهنمية. عندئذ، وبسبب غرورها المجروح، كانت «الڤيوليت» الأولى، وتلك التي كنت اسميها «قرنفلة» سراً و «التي لا اسم لها»، تتقوقع وتكف عن بعث عطرها على الإطلاق. كانت تتركني

وحيداً، غير قابلة للاختراق، مقفلة بإحكام. كنت أتعذب وأحاول الحصول على ردّ فعل من خلال لمسات وقصاصات. كم كان جميلاً تأملها في استسلامها الكامل، وخمولها المنتشي الذي، وحدها الدمى المراهقات تشعر به من دون أن تموت تماماً.

الفصل التاسع عشر

هل دُفن بيلمر مع دميته الأولى نزولاً عند رغبته؟ هل توفي بسلام أم أن صوتاً ظل يلاحقه ويأمره «سبرينغ!» (اقفز! بالألمانية) ولا تتوقف حتى تصل إلى قعر الهاوية؟ هل قابل فعلاً أعضاء من «جمعية مؤلهي النور الأزلية» كما أخبرني أوراسيو إرناندیس المرة الأولى والوحيدة التي أتى فيها إلى مكتبي في ليلة جهنمية، حاملاً معه سنين من الذكريات والهذيان وخصوصاً الفظائع والأكاذيب؟ أكاذيب قاسية أم حقائق كافرة؟ كيف يمكن لـ أ .إ. أن يعرف كل هذه الأشياء؟ وهل كان فعلاً أوراسيو إرناندیس أو بديلاً منه؟ هل كان فيليسبيرتو يؤدي دور أخيه غير الشقيق ويمثل وفاته لينقذ نفسه، أم أن أحد أعضاء «جمعية النور الأزلية» قرر الاقتراب مني فلجأ إلى تلك الطريقة الخادعة والشريرة بالادّعاء أنه مبتكر دمى «الأرطنسيا» للحصول على استسلامي الكامل؟ لكن لا يجوز أن أرتمي في أحضان

اليأس. قريباً جـداً، ستشهر الحقيقة الغامضة سيفها من الغياهب لتقطع الحبل الذي لا يزال يبقيني صامداً وسط الغابة الساكنة حيث كنت أنا، خوليان ميركادير، وليس دمى «الڤيوليت»، سجين ظمأ أزلي ورغبة تفتّت قلبي.

الفصل العشرون

كانت حياتي تلوّنت بزهر البنفسج وتشرّبت عطره الذي لا يقاوم. كنت من دون أي شك أسعد البشر على هذه الأرض. لم أكن أتأثر بشيء، لا بالتحولات التي كانت تهز البلاد ولا بمشاكل أولئك المضطرين لإعالة عائلاتهم كل يوم، ولا بالشهرة التي يحلم بها المتغطرسون في المافيات والمجموعات الأخرى... ولا حتى بمفاجآت أ .إ. العصبية الذي توقف فجأة عن مراسلتي. كنت اعتقدت أنه لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن تخطى عمره التسعين سنة، وهو يحلم ربما بعطر دمية «ڤيوليت» لا تزال في ريعان شبابها.

فجأة، تسارعت الأحداث ووقعت الكارثة. كيف تحاك مِجلدَة أقسى أنواع القصاصات؟ الآلهة أشرار: يعرّفوننا بالجنة لنتعذب في ما بعد.

آخر مرة رأيت فيها «ڤيوليتا» كانت في مناسبة وداع كلاوس. وبفضل تراكم المعاملات البيروقراطية الذي ينجم

عادة عن حصول وفاة مفاجئة، لا سيما في حال الاشتباه في جريمة قتل، تمكنت من الركوب في طائرة من مانشستر، والتوقف في عدة محطات قبل ملاقاتنا في الجنازة.

كانت تلبس ثوباً أبيض يبرز جسداً لا يزال رقيقاً، وكان شعرها المشدود إلى الوراء يظهر وجهها الناعم: كانت ڤيوليتا امرأة جميلة، تنبعث منها أحياناً، في لحظات سهو، تلك البراءة العطرة التي أعرفها تمام المعرفة. كنت محطم القلب، كما لو أن أحدهم أحدث فجوة كبيرة وغامضة في قلعتي المنيعة. لكن يكفي أن أراها تجلس عند طرف المقعد، حين أتوا بأكاليل الزهور، حتى أتذكرها وهي تمتطي فخذي كفارسة صغيرة نهمة. وبالقرب من والدتي، التي رافقتنا طبعاً في ذاك اليوم المشؤوم، كانت تجلس إيزابيل، وكان في نظرتها شيء ما يوبخني بسبب موجة الفرح التي اعترتني فجأة. ليس بوسعي القول ما إذا كانت تذكرني بجدية الموقف، أو أنها تنبهت لظل رغبتي الذي حطّ على ركبتي ڤيوليتا الطيعتين. فهمت غيظها. لا يمكنني أن أنسى أنها كانت فارستي الأولى.

تشتتت أفكاري لدى وصول كلارا برفقة رجلين عابسين يلبسان زياً بسيطاً ويبدوان كراهبين. أردت الانضمام إليهم، لكن كلارا، وبإشارة خفية إنما حازمة، أومأت إليّ بألّا أفعل. ونظرتها التي جالت على الحضور للتأكد مما إذا تنبه أحدهم لتبادل نظراتنا، حملتني على الاعتقاد بأن ثمة من كان يراقبنا.

اكتشفت عندئذ أن في المكان العديد من الأشخاص الذين لا أعرفهم وكانوا فعلاً كثراً، لا سيما وأن كلاوس كان يعيش على انفراد وحياته الاجتماعية شبه معدومة. كان بعضهم من الشرطة، وكان ذلك جلياً بسبب هيئتهم المخيفة الأشبه بمظهر رجال العصابات. أما بعضهم الآخر، من رجال ونساء، فكانوا، وبكل برودة أعصاب، مركزين على مهمة تقتصر على الانتظار... والتأكد من أن كل شيء يتم بحسب الأصول، وأن الأمور تسير كما يجب أن تسير: التقاط المحرمة التي أسقطتها إيزابيل حين غادرت مقعدها أو الحرص على ترتيب أكاليل الزهور حول التابوت. لم يكونوا يلبسون زياً معيناً كما لم يبد عليهم أنهم من موظفي المعمل، لكنني لم أستطع أن أجد

سبباً لوجودهم إلّا كونهم مندوبين عن الشركة المنظمة للجنازة التي كانت الأغلى والأكثر رقياً في كل المدينة.

لكن فجأة لم أعد مهتماً بهم بسبب حصول أمر لم أكن أتوقعه البتّة: لوحة صامتة التفتت فيها ڤيوليتا إليّ برأسها المنحني وشفتيها الممتلئتين والمتعاليتين لتتحداني بنعومتها وسحرها. وعلى الرغم من معالم الألم والضعف البادية على وجهها في تلك المناسبة، إلّا أن هذا الضياع عكس بريق عذابي وظمأ رغبتي المتجدد وغير المروي على الدوام. تذكّرت كلاوس وغيابه الذي اخترق قلبي كألم مبرح: لقد تركني وحيداً مع رغباتي وخطاياي. الآن أمسيت يتيماً إلى الأبد، كمريض لا أمل في شفائه.

الفصل الواحد والعشرون

الاغتصاب الأكثر صعقاً يتسم دائماً بالصمت وخصوصاً، بعنصر المفاجأة. لا أعرف كيف تمكنت من الصمود أمام قبر كلاوس من دون أن أنزلق إليه. لكن ما إن اجتزت المدخل الحديدي للمقبرة الألمانية في المدينة، حتى بات من المستحيل أن أحافظ على رباطة جأشي. حين لاحظت ڤيوليتا وجهي الشاحب، اقتربت مني وأمسكت بذراعي ثم طلبت المساعدة من خالتها إيزابيل، وقامتا باصطحابي إلى المنزل. لا شك في أن إيزابيل هي التي اتصلت بالطبيب الذي أعطاني مسكنات: كان عليّ النوم والنسيان، وإن لفترة وجيزة. بدأت أنظر إليهما كما لو كنت أدخل أكواريوم: بينهما وبيني مياه جيلاتينية، صوتهما يصل إلي من بعيد، وتحركاتهما تبدو غير واضحة. كنت سعيداً بحالة شبه اللاوعي التي غرقت فيها، ولم أكن أعي إلّا نبضي، كما لو أنني عدت مجدداً إلى بطن أمي الآمن والدافىء. لا شك في أنها أم قوية:

حصن من القرميد وجسم طيع لدمية في آن. في الداخل، دهاليز وممرات سرية حيث كان قلبي يتدحرج ككرة سحرية، من دون الحاجة إلى يد طفل لدفعها. بقيت على تلك الحال إلى أن غرقت في سبات عميق.

مضت ساعات. كانت ليلة ظلماء حتى عادت الكرة تُتدحرج في أذني. حاولت أن أفتح عيني لكن جفنيّ لم يطيعاني. ربما كان مجرد حلم حين استيقظت وأنا أسمع قلبي ـ هذا الخائن ـ يرفض التخلي عن لعبة الوجود العنيدة. فجأة تبدد الليل. فتح أحدهم باب الغرفة: لا بد أنها إحدى فارساتي، أتت للعب دور الممرضة. وكذلك لتلعب بقلبي: بفعل يدها، كانت الكرة تتدحرج الآن بسرعة متزايدة وكنت أشعر بها وهي تقترب مني. بقيت غير قادر على فتح عينيّ، لا بل على الكلام أو الحراك. لا بد أنني تحولت إلى دمية هامدة. كانت زائرتي بلا شفقة: توقف قلبي للحظة حين فتحت رجليّ وأجبرتني على تلقي رغبتها العمودية كنعمة حلّت بكل عظمتها.

الفصل الثاني والعشرون

وصلت أخيراً إلى الغابة. تفوح منها رائحة رطوبة وأيضاً عطر ناعم وبريّ. أوغلت فيها وكأنني أعرف أن عليّ بلوغ مكان محدد. أجتاز أودية وأنهراً صغيرة ومناطق وعرة وأخرى يكثر فيها العوسج. خلت نفسي لبرهة ضائعاً، لكن سرعان ما رأيت شجرة ذات جذع مستقيم ومتين. أدنو منه لأكتشف فيه تجويفاً بحجم رأسي. لكنه لم يكن فارغاً: فيه قرص عسل وشمع تنبعث منه رائحة ناعمة وبريّة، ذاك العطر الذي أشتمه منذ البداية. ألمس القرص الذي بدأ يسيل على قشرة الشجرة، فأحس بارتعاش في الشمع الذي سرعان ما بدأ يتكثف ثم يتخذ شكل جسد فتاة تشبه سوزانا غارميندیا. تبدو جزءاً من الشجرة، وكأنه تم تقييدها بها لتلك الغاية. هي تحت رحمتي كلياً. ألجها بعنف. تريد أن تصرخ لكن فمها لا يصدر أي صوت. أظن عندئذٍ أنها بكماء. فجأة، أصاب بالذعر: قد تحبل مني. لكنني أفكر مجدداً: لن تتمكن من

اتهامي، لن يكون من تبعات. أواصل ولوجها بقوة، لأكتشف أن صراخها الصامت الذي بقي مخنوقاً في حنجرتها، هو صراخ متعة. وقال لي صوت بلا صوت «وحدها الأحلام هي الصامتة، رجاءً لا تستيقظ». وبالطبع استيقظت. فتحت أخيراً عينيّ فأدركت أنني لم أكن أحلم: كانت فارستي تمتطي رغبتها العمودية، وهي تشرق نعومة.

الفصل الثالث والعشرون

من بين كل الدمى التي تحمل اسم زهرة، فصيلة قد يتذكرها بعضهم على أنها «دمى ـ زهور الشر»: دمى «الڤيوليت» التي صممها خوليان ميركادير وكلاوس فاغنر، دمى ذات حجم طبيعي وجسد مراهق وعذري يمكن ـ لنقل ذلك بصراحة ولو لمرة ـ أن نحلم باغتصابه بصمت ومن دون تبعات. لكن في علم نباتات الرغبة هذا، سابقةٌ كنا نجهلها: دمى «الأرطنسيا»، التي صممها رجل ذو طراز فريد: فيليسيرتو إرناندیس، عازف بيانو جوال وكاتب من الأوروغواي تظاهر بأنه توفي وانتحل صفة أخيه غير الشقيق المعزول في مصح عقلي منذ أن ألّف كتاباً بعنوان «دمى الأرطنسيا»، والذي أوحى هذه الرواية المروعة. على الأقل هذا ما أعتقده بعيد وفاة كلاوس الشنيعة.

كنت قد قررت إقفال معمل الدمى. اقترحت شركة

يابانية عليّ شراء وكالة دمى «الڤيوليت» التي قد سجلها كلاوس كعلامة تجارية لتسويقها على نطاق واسع بعد أن أدرك منذ البداية ما يمكن أن تمثله تلك الدمى. وعلى الرغم من حدادي، كنت أبتسم لمجرد التفكير في محال الزهور والمشاتل في كل أنحاء العالم التي تبيع منذ سنوات زهرة غريبة وأنيقة وزاهية اللون، إنما تفتقر إلى أي رائحة: «السيكلامين» (بخور مريم) المعروفة بزهرة «الڤيوليت» الامبريالية اليابانية. أستطيع أن أتخيل منذ الآن دمى «الڤيوليت» اليابانية الجديدة بملامحها وتضاريسها الناعمة وعينيها الكبيرتين كتلك التي تظهر في رسوم الكاريكاتور أو الرسوم المتحركة الآسيوية، مليئة بالاستغراب ومتسمة ببراءة لا يمكن وصفها. كنت عاجزاً عن اتخاذ قرار: فدمى «الڤيوليت» كانت تواطؤاً بين أب وابنته، بيني وبين ڤيوليتا، لكنها ثمرة عملي الخاص مع ذاك الرجل الذي لطالما خضعت له خضوع الابن لأبيه. لا أدري إن كنت أحسن التعبير عن فكرتي.

إزاء صمتي، قدّم لي اليابانيون عرضاً يعادل ثلاثة أضعاف العرض الأول. قلت لهم إنني بحاجة إلى الوقت،

فوافقوا. في الوقت ذاته، كنت مصراً على إقفال المعمل. قدمت تعويضات للعمال. أما دمى «الڤيوليت» الأخيرة، تلك التي لم تبع بعدما توقفت عن الاهتمام بالطلبات، فكانت تنام في علبها الخشبية كفتيات جميلات توفيت قبل أن تنضج كلياً. لم أعرف ما سأفعله بها: لم يكن بوسعي الاحتفاظ بها لعددها الكبير، وتلك التي كنت أقتنيها ما قبلت الخيانة أصلاً. والخيانة هي ضعف إرادة تحتاج إلى قوة وتصميم، على الأقل في تلك اللحظة. من دون نزاهة كلاوس، من دون حضوره البعيد، إنما الأكيد مثل الأفق، كنت أمسيت شخصاً مكسوراً وضعيفاً، أشبه بالثياب البالية (أعترف بذلك من دون خجل) أو بجرح مؤلم ومثير للشفقة.

أدت لامبالاة نظامنا القضائي إلى إقفال الملف بعد أن اتّهم التحري المكلف بالتحقيق جاراً كان كلاوس، الألماني الهادىء عادة، تشاجر معه بسبب نباح كلبه. ثم اتهم كلارا بعد أن عثر المحققون على بطاقتها في جيب بذلة النوم التي كان يلبسها حين وجدوه ميتاً. وأخيراً

اتهمني أنا. بما معناه أنهم لم يعثروا على أي دليل. لا شك في أنهم كانوا سيستنتجون أن سبب الوفاة هو «انتحار ناجم عن تهور»، بحجة أن في تلك الصبيحة، أصيب كلاوس بكابوس، وقبل أن يلقي بنفسه من أعلى الدرج، لفظ كلمات بالألمانية سمعها الجار صاحب الكلب. كانوا ليقولوا ذلك لولا لم يتم خلع باب شقته، ولولا لم يعثروا في مكتبه على علب من خشب صغيرة فارغة (لم أرها من قبل لكنني أعتقد أنها كانت تشبه تلك التي كانت نستعملها لدمى «الڤيوليت» المراهقات، وإن كان حجمها أصغر). كان موزعة في الغرفة بهدف واضح (الآن يمكنني أن أفهم ذلك) وهو إثارة الشبهات حول محتواها.

بعد نحو سبعة أشهر على مقتل كلاوس، وفي ليلة ممطرة، دخلت الغرفة التي كانت مكتبه وملاذه في آن. على طاولة التصميم، كان لا يزال الكتاب الأخير الذي تشاركن فيه: كتاب حول الزهور الشرقية التي كانت ڤيوليتا حصلت عليه من مكتبة في «بلومسبيري» وأرسلته كهدية في عيد ميلاده الأخير. وفي آخر الغرفة باب مشقوق يؤدي

إلى غرفته الخاصة، تلك الحجرة حيث تأملت للمرة الأولى صور بيلمر التي أصابتني بالعدوى. كان عليَّ التسلح بكل الشجاعة الممكنة لاجتياز العتبة. ما إن أشعلت النور حتى ظهرت لي صورة كبيرة على الحائط، لم تكن هنا في المرة الأخيرة التي دخلت الغرفة، مستفيداً من ذهاب كلاوس في عطلة. الحقيقة أنني غالباً ما كنت أدخلها كلما سنحت لي الفرصة: كان عالمه المتحفظ والبعيد المنال يثير حشريتي. كانت صورة لدمية من تصميم بيلمر لم أرها من قبل: بالقرب من وجهها، وبشكل يلامس صدرها المشرّح وغير المكتمل، كانت ملامح متلاشية تنظر إلى الكاميرا كما لو كانت رسماً ذاتياً أشبه بالطيف: كان وجه كلاوس فاغنر، وإن كان أصغر سناً بكثير مما أذكر.

لم يسعني الوقت لأستعيد رباطة جأشي. سمعت أحدهم يدق بعصبية وإصرار باب المكتب الزجاجي. كنت قد أعطيت تعليمات صارمة للبواب بألا يتم إزعاجي، مهما كان السبب. هرعت إلى الباب وقد تملكني

الغضب: كنت أحاول مواجهة آثار كلاوس الأخيرة، وأحدهم لا يسمح لي بذلك. فتحت الباب من دون أن أعرف أنني كنت في استقبال القدر.

وبدلاً من وجه البواب العابس، كان عند الباب رجل قصير القامة، أشعث الشعر، ذو نظرات ماكرة إنما عطوفة، سمين وقد ضاق المعطف عليه. كان يبدو أصغر سناً من شخص يفترض أن يبلغ من العمر تسعين عاماً. كان يتكئ على عصا بيضاء من عاج ويحمل تحت إبطه محفظة وثائق أرجوانية اللون. ترى من يكون ذاك الرجل؟ كيف سمح له البواب بالدخول؟

ـ اعذرني على تطفلي، لكن علينا التحدث. اسمي أوراسيو إرناندیس، أ.إ. ألا تذكرني؟ بسرعة، بسرعة ليس لدينا الكثير من الوقت.

ومن دون انتظار جوابي، دفع بالعصا إلى الأمام، وقبض على يدي التي كانت لا تزال على مقبض الباب الذي أغلقه بعناية من دون أن يمنحني الوقت الكافي للاعتراض.

خطا بعض الخطوات ثم ترك المحفظة على قطعة أثاث. فجأة مسح ماء المطر عن أطراف معطفه وقال:

ـ أتعرف يا سيد ميركادير، أن هذه الليلة ستهب عاصفة قوية؟ هكذا قالوا بعد الظهر في نشرة الأحوال الجوية.

الفصل الرابع والعشرون

لم يكن لدينا الكثير من الوقت، لكن المطر العاصف الذي بدأ يتساقط ما إن اجتاز الرجل الصغير القامة العتبة، دام أكثر من ساعة، لم يتوقف خلالها العجوز الذي يسمي نفسه أ .إ. عن الكلام. في البداية كنت لا أزال تحت وقع الصدمة، وكنت أراقبه يسير ذهاباً وإياباً، يهزّ عصاه، ينفعل ويلوّح بيديه. كان صوته يعلو حتى الصراخ، مستفيداً من المطر الذي كان يحدث ضجيجاً هائلاً في الخارج. وفيما كنت أراه يسيطر شيئاً فشيئاً على الساحة، كممثل موهوب على خشبة المسرح، وأسمعه يروي قصصه المشينة، شعرت بانقباض دفعني إلى الشك في كل شيء، حتى في وجودي وراء مكتب كلاوس برفقة ذاك الرجل المجنون. قلت لنفسي إنه ربما كان يتوهم ويختلق الشخصيات والقصص العبثية، لسبب مؤلم ما. وللحظة، فكرت في شخصية الأرنب في رواية «أليس في بلاد

العجائب» الذي كان في كل مرة يخرج ساعته ويصرخ «تأخر الوقت... تأخر الوقت!».

كان العجوز يهذي حتماً، فما إن خطرت على بالي شخصية هذه القصة المجنونة، حتى أخرج من جيب معطفه ساعة سروال، وبعد أن ألقى نظرة عليها قال: «تأخر الوقت...».

وكيف لي ألّا أعتقد أنه فقد عقله حين بدأ أ .إ. ـ أو مهما كان الاسم الحقيقي لذلك الرجل ـ يقول لي إنه يعرف من قتل كلاوس فاغنر، لكن حتى أتمكن من فهم كلامه وتصديقه، عليه أن يكشف لي قصتين.

كانت الأولى تتعلق به شخصياً وتحديداً بأسباب تظاهره بالموت بعد سنوات من الاضطهاد والمضايقات. في البداية، طلب مساعدة مدير المستشفى الذي احتجزوه فيه فترة أسابيع بعد محاولة «انتحاره» الأولى. فوجد المدير الذي كان يهوى القصص البوليسية فرصة للمشاركة في واحدة منها واتصل برئيس الشرطة. حين روى أوراسيو ـ أو فيليسبيرتو ـ إيرناندیس أن إحدى زوجاته، وهي إسبانية تدعى ماريا لويزا، كانت جاسوسة لدى جهاز الاستخبارات السوفياتي «كي. جي. بي»، أبدى رئيس

الشرطة بعض الاهتمام، لكن حين أضاف الكاتب أن جهاز الاستخبارات هذا كان في الحقيقة أحد أسماء منظمة أكبر هدفها تطهير العالم من خطيئة الشهوة وإنقاذه من جحيم الجسد وشق الطريق أمام نور الطهارة المطلقة، شرع المحقق يضحك. في ذاك اليوم، خرج أ .إ.، أو ف .إ.، من المستشفى، وقد تم تحذيره بأنه قد ينقل إلى مصح عقلي إذا واصل هذيانه. «قيل لي إنك كاتب واعد، فلم لا تواصل كتابة الروايات بدل التظاهر بأنك تعيشها في الواقع؟». هكذا قال له الرجل وهو يخرج كتاباً صغيراً ثم يقدمه للكاتب: «زوجتي التي تحب قراءة كتب المؤلفين المحليين طلبت مني توقيعك...». لم يتمالك إيرناندیس عن الشعور بالإطراء. كان غلاف الكتاب الصغير أرجواني اللون، فلم يستطع أن يرى العنوان إلّا حين أصبح بين يديه وبدأ يتصفحه. عندئذ، وقع منه الكتاب والقلم الذي أعطاه إياه الدكتور. كانت نسخة عن كتاب «دمى الأرطنسيا».

وإزاء ذهولي، قال لي هذا الرجل بعصبية: «ألا تفهم يا سيد ميركادير؟ ألم أقل لك من قبل إن شقيقي، أي أنا

حين لم أكن أتصور بعد الجحيم الذي سيحاصرني، قد كتب رواية بهذا العنوان لم تبصر النور لأن حريق المطبعة قضى على جميع النسخ، بما فيها النسخة المكتوبة الوحيدة التي كنت أملكها؟ أتفهم الآن الانحراف الذي كلّمتك عنه؟ أنت تعرف طبعاً أن تلك الرواية استندت إلى وقائع ملموسة، وأن دمى «الأرطنسيا» وُجدت كدمى «الڤيوليت» البريئة الخاصة بك. ألا تذكر السمراء الجميلة ذات القناع التي أرسلتها إليك منذ بضع سنوات؟ أنسيتها تماماً لأن بشرتها الرائعة لم تضاه بشرة صغيراتك الوقحات الناعمة؟

اعترضت بحركة من الرأس.

ـ قد أبدو لك أنني أبالغ. اسمح لي أن أقول لك إنَّ مؤلفات الكاتب هي جلّ حياته: لا سبب آخر لوجوده. ومن أجل حماية رواياتي من الهلاك الذي يريدونه لي، اخترعت نظام كتابة خاصاً وناجحاً: أتعرف أنني لم أكن في الماضي عازف بيانو جوالاً وحسب، بل أيضاً أمتهن الكتابة بالاختزال؟. وإن لم يكن ذلك كافياً، يمكنني أن أروي لك الظروف التي أحاطت بوفاة زوجتي ماريا

أرطنسيا التي، ولسوء حظها، خصصت تلك الرواية التي لم تُطبع... أو الطريقة التي قضى بها أوراسيو الصغير قبل أن أقرر خوض غمار حياته... لكن الوقت تأخر، وقد وعدتك بأن أكشف لك من هو، أو بالأحرى من هم الذين قتلوا صديقك كلاوس فاغنر.

عندئذ، وبرغم المطر الغزير والرعد المزلزل، سمعت الرجل القصير القامة الذي يدعي أنه الكاتب فيليسبيرتو إرناندیس، يهمس اسماً. اسماً مركباً وسريّاً. كان يفترض بي الضحك مثل رئيس الشرطة الذي هزىء بروايته، إلّا أن ذلك قد يوحي بأنني على علم مسبق بكلامه، وأنني أحد أعضاء تلك المنظمة، ما يفسر وجودي على قيد الحياة. لكن كان يمكنني الضحك أيضاً لأن حديثه كان رواية لا تصدق، ونتاج عقل رجل هرم مصاب بهذيان اضطهاد تبشيري. تذكرت عندئذ أنني تسلمت منذ سنوات دمية «أرطنسيا» أرسلها أ.إ، وكذلك تلك البطاقة البريدية التي تمثل صور فتاة شبيهة تماماً بابنتي ڤيوليتا حين كانت تبلغ من العمر اثني عشر عاماً، شبه عارية، بالكاد تغطيها شرنقة ريش ناعم تتطاير بنفخة الرغبة التي تثيرها. كان كلاوس يقول منذ البداية إنَّ عليّ الحذر من تلك الهدايا،

وإذا بالمرسل نفسه يظهر في المعمل ليكشف لي معلومات حول مقتله الشنيع. كان العجوز قد وضع يديه على المكتب وشرع يهمس بأسماء الفاعلين. ووسط قرقعة المطر الغزير، كنت أسمع، لا بل كنت أرى ذاك الاسم البغيض يرتسم على شفتي أ .إ. : «جمعية مؤلهي النور الأزلية».

الفصل الخامس والعشرون

«تأخر الوقت». كان الرجل الذي يدعي الآن أن اسمه فيليسبيرتو إرناندیس يتكلم وهو يلامس بعصبية العصا العاجية. وأخيراً، جلس على مقعد إزاء المكتب. أخيراً، جلسنا وجهاً لوجه. تنهّد ليستعيد تركيزه وقواه ثم واصل حديثه.

ـ «عليّ الإيجاز بأكبر قدر ممكن. أعرف أنك لا تزال تشك في كلامي. أتعرف يا سيد ميركادير أن عزيزك هانس بيلمر، ذاك الفنان العظيم، قد تعرض هو أيضاً لمضايقات على يد أعضاء جمعية النور الأزلية؟ أو بالأحرى ما يوازي تلك الجمعية في أوروبا، فأنا أؤكد لك أنهم منتشرون في جميع بقاع الكرة الأرضية. وإن لم تسمع باسمهم هذا، فهو لأنهم يعملون سراً وإن كانوا يتكلمون علناً. أتجنبهم منذ أربعين عاماً، أصبحت أعرف خطواتهم

وأفهم تصرفاتهم السرية. قلت لك إنني ظننت في البداية أن غايتهم هي محو خطيئة الشهوة من العالم لاعتبارها الخطيئة الأصلية، إلا أنني اكتشفت أن فظاعتهم أكبر بكثير لأنهم يسعون إلى عالم على نسق واحد وإلى محو العتمة وتطهير الظلمات وشق الطريق نحو النور الأزلية. وتماشياً مع هذه الخطة، نصّبوا أنفسهم محكمة تفتيش. لم يفهموا أن الشر أيضاً في نظرة القاضي. استطاعوا على مدى التاريخ اللجوء إلى الطرق الأكثر بشاعة وفظاعة لبلوغ هدفهم الأسمى، وستتعجب إن قلت لك الأسماء التي انتحلوها في حقب غابرة وتلك التي يحملونها اليوم. هم يتلذذون بعملهم هذا. آه، كم يتلذذون بمعاقبة من يتحداهم بنظرته، من يجعلهم يتنبهون لانحرافهم الخاص. لهذا السبب عاقبوا بيلمر ولهذا السبب قتلوا صديقك كلاوس، ولهذا السبب حملوني على اختلاف موتي، ولهذا السبب بدأوا بمضايقتك، ألا تعي ذلك؟ لا تنظر إليّ هكذا. لن تجد في أي سيرة للفنان الألماني ما سأكشفه لك الآن. صحيح أن بيلمر لم يمت على أيديهم، لكنهم أوشكوا على ذلك. أتعرف أن زوجته الأخيرة، الكاتبة أونيكا

زورن انتحرت أمام عينيه؟ يقولون في الكتب إنها كانت خرجت تواً من المستشفى، حيث مكثت بضعة أسابيع لتتعافى من أزمة ذهانية. ما إن سمحوا لها بالخروج من المشفى حتى عادت إلى شقة بيلمر. لا أحد يعرف عما تكلما. لكن حين عاد بيلمر ومعه فنجان شاي، كانت واقفة فوق حافة النافذة وعلى وشك أن ترمي بنفسها. ما أعرفه أنا غير وارد في أي كتاب. أعرف أن بيلمر المصدوم همس برقة: «أونيكا... لا»، لكن صوتاً من خارج المبنى، صوتاً سمعه طير الحمام فقط على حافة النافذة والمرأة العجوز في الطابق السفلي وبيلمر نفسه (علماً أنه اعتقد لوقت طويل أنها مجرد هلوسات) هذا الصوت أعطى أمراً: «اقفزي!» وبالطبع امتثلت أونيكا للأمر. ألا تصدقني؟ لا يمكنني للأسف أن أقول لك كيف توصلت إلى شهادة المرأة العجوز، ولا وقت أصلاً للغوص في هذه التفاصيل. لكن أيمكنك يا سيد ميركادير أن تفهم الآن إلى أي حد وصلت فظاعة أعمال تلك الجمعية التي أحدثك عنها؟».

كنت قد قرأت شيئاً عن حياة بيلمر، وكنت أعرف أن زوجته الأخيرة انتحرت في حضوره، وهي وفاة لم يتخلص من ذكراها إلّا بعد سنوات، حين رحل الفنان نفسه بعدما تآكله السرطان والشعور بالذنب. توقف ف .إ. برهة عن الكلام ومسح جبينه بيده. لم ألاحظ من قبل أن العرق كان يتصبب منه. كانت اليد الأخرى لا تزال ممسكة بالعصا كما لو كان بحاجة إليها لاستعادة قواه. وكان فعلاً بحاجة إليها. فعلى الرغم من أن العاصفة هدأت قليلاً، كان يجهد ليُسمع صوته ويكمل روايته. وبعد أن استعاد تنفسه ووضع يده فوق الأخرى الممسكة بالعصا العاجية، تابع كلامه على الرغم من جزعي الواضح.

ـ «أتعرف كيف يقال «اقفز!» بالألمانية؟ تعلمت الكلمة منذ صغري: في الأوروغواي جالية ألمانية كبيرة كانت نجت من الحرب وكان لدي العديد من الأصدقاء الألمان. كنت أعرف الكلمة إذاً، لكن فيما بعد أصبحتُ أرددها ليلة تلو ليلة، كنوع من تعويذة لتجنيبي الهلاك. الآن أمسيت عجوزاً لكن لا أزال متعلقاً بالحياة، فهي بالنسبة إلي توازي الخيال والكتابة أهمية. «spring!» «اقفز!» هذا ما أقوله تماماً لنفسي لكي لا أقفز.

«Spring!»، هكذا أمروا صديقك كلاوس فاغنر. هل أصبحت جاهزاً للاعتراف بأن دمى «الأرطنسيا» المحرمة الخاصة بي كما دمى «الڤيوليت» الصغيرة كانت أحد الأسباب الرئيسية وراء هذا الأمر؟

كأنه كان يقول لي إنني قتلت كلاوس بنفسي. وقفت لمواجهته، على الرغم من الدوار والرجفة اللذين انتاباني.

ـ لست متأكداً من أنني فهمت ما قلته أو صدقته. إن كان كلامك صحيحاً، فلماذا اختاروا كلاوس؟ لا تسئ فهمي، لا أريد التفاصح، لكنك تعرف أن دمى «الڤيوليت» هي ثمرة شغف محرم هو شغفي. أنا صاحب الفكرة. إذاً، المذنب الفعلي هو أنا...

ـ الحقيقة مريعة، هل أنت مستعد لسماعها يا سيد ميركادير؟

كان صمتي مزيجاً من عدم التصديق والغضب.

ـ أكنت تعرف أن صديقك كلاوس فاغنر كان يصنع دمى على حسابه الخاص؟ كانت فعلاً رائعة، دمى

«الڤيوليت» تلك، البالغة من العمر خمس أو ست سنوات، وحتى أصغر بحسب ذوق الزبون المنحرف. ألا تصدقني؟ يمكنني أن أثبت لك ذلك.

لم أشأ الاستماع إليه أكثر. لم يعد يهمني أن يكون رجلاً هرماً أو أنه الكاتب الذي يدعيه أو أنه اخترع في الحقيقة أو في الخيال أو في الاثنين معاً تلك الدمى المحرمة التي تسمى «الأرطنسيا». ثمة انحراف يختلف عن انحراف آخر. لا يمكنني أن أسمح له أو لغيره أن يحملني مسؤولية مقتل كلاوس فاغنر ولا أن يشوه صورة صديقي، والدي الحقيقي، الرجل الذي لطالما تقبلني كما أنا، من دون أن يهمه كيف كنت. دفعت الرجل من دون مراعاة لعمره إلى خارج المكتب. كان أقوى مما اعتقدت. حاول تهدئتي بالقول: «إسمع يا خوليان اسمع، قد أصبح الوقت متأخراً». أجبته أنه مجنون وكاتب فاشل وأغلقت الباب في وجهه. أحتاج إلى بضع دقائق لاستعادة أنفاسه ثم سعل وغادر. لكن ظله الكثيف الذي بدا من خلال الزجاج الشفاف استقام مجدداً لحظة ابتعاده. لم أدهش لرؤيته يضع العصا تحت إبطه ويمشي بخفة كما لو كان

يؤدي دوراً تمثيلياً، ثم خلع عنه الزي التنكري الذي لبسه لسنوات عديدة. أردتُ أن أنعته بالمنافق لكن رأسي على وشك الانفجار. كنت منهاراً. أغمضت عيني وكأنني أردت بذلك محو ألم واضطراب اجتاحا العالم فجأة. عالمي أنا.

كانت العاصفة قد هدأت تماماً حين رفعت رأسي. رأيت على الطاولة محفظة الوثائق الأرجوانية اللون التي جاء بها الرجل، ولا بد أنه نسيها بعد طردي له. كنت على وشك رميها بغضب في سلة النفايات ظناً مني أنها تحوي فظاعة أخرى حين أفلتت من يدي وتطايرت الأوراق منها كطير حمام عطش. ولاحظت أن ورقة واحدة فقط كتبت عليها جملتان واضحتان.

مؤلفات صادرة ما بعد وفاتي
(حياتي كميّت)
بقلم فيليسبيرتو أ. إرناندیس

أما بقية الأوراق، فما كتب عليها أشبه بآثار سرب من طير الحمام: رسوم كتابة اختزال يستحيل فك رموزها.

الفصل السادس والعشرون

«وحدها المنية والأحلام هي الصامتة. رجاء لا تستيقظ: لمَ لا تقفز للمرة الأخيرة؟» وبالطبع استيقظت. كنت في غرفة مستشفى. كانت إيزابيل تهمس كلمات في أذني: «أنت مجرم لعين، أنت منحرف مجنون... لا أدري لماذا أزال أقلق بشأنك». أنا أيضاً لم أكن أعرف. عثرت عليّ الخادمة مغمى عليّ حين أتت لتنظيف المنزل في الصباح فاتصلت بإيزابيل. أصبت بأول نوبة قلبية في حياتي. كادت تقضي عليّ. لو مضت خمس عشرة دقيقة لما كان من الممكن إنقاذي، حسبما قال الأطباء. في تلك الصبيحة، اتصل بي ف. أ. إ.، ومهما كان الشخص. كان يحذرني مما سيحصل، بطريقة مقتضبة، لأن الوقت تأخر. قال لي أولاً إنّ دميتَي «ڤيوليت» صغيرتين، من النوع الذي لا يزال يدعي أنه من صنع كلاوس، سترسلان في علبتيهما الخشبيتين، الأولى إلى

شقيقة زوجتي والأخرى إلى ڤيوليتا في مانشستر، وإن المرسل لم يكن سوى خوليان ميركادير، أي أنا.

«لجمعية مؤلهي النور الأزلية» تصرفات غير متوقعة، وهي الآن تختارك أنت. لا شيء في الحياة من باب المصادفة: حتى لو كنا نجهل معنى اللغز، كل شيء يعود في النهاية إلى المكان المحدد له. أنا أجهل مثلاً لماذا قاموا بتعذيب صديقك كلاوس. لم أكشف لك عن التفاصيل لأنك لم تعطني الوقت لأشرح لك. لم تكن معاملتك لي مهذبة بتاتاً يا سيد ميركادير. لكنني غير حاقد عليك، بل على العكس، إنني أخشى على سلامتك الجسدية وأيضاً... العقلية. لذا أتردد الآن قبل أن أكشف لك ما في ذهني، لكن إن لم أتخذ المبادرة، سيتكفل عضو من الجمعية بذلك. أتمنى أن تأخذ عبرة مما سأقوله لك. أنت تظن، كما الشرطة والصحافة، أن صديقك كلاوس قضى على أثر الكسور التي أصيب بها بعد سقوطه من الطابق الخامس للمبنى الذي كان يقيم فيه. لو دقق الطبيب الشرعي أكثر، لكان ذكر في تقرير مفصل ودقيق أنه تعرض لاعتداء مسبق، حيث نخرت أنسجته وتفجرت منطقة حميمة من جسمه بفعل مطرقة

خشبية استعملت قبل ساعات... أنت تعرف عن أي عضو من جسمه أتكلم، أليس كذلك؟ ألا تجيبني يا سيد ميركادير؟ أترى كلماتي تفجر قلبك؟ أو لا تزال تعتبرني كاتباً فاشلاً ومجنوناً يختلق القصص والروايات؟ إسمح لي أن أقول إنك لا تعرف شيئاً عني. أنت تعرف فقط بعضاً من أسمائي. أنا أوراسيو إرناندیس، أنا فيليسبيرتو، وقد أكون كلاوس فاغنر أو خوليان ميركادير... سأكون من يجدر بي أن أكون. أنا لست شخصاً واحداً، بل عدة أشخاص، أنا جمع غفير من الناس. أنا جيش بأسره. سأفعل ما يلزم لأخلص العالم من الظلمات، فيفيض نوراً.

في تلك اللحظة، اخترق ذراعي ألم مبرح ثم تسلل إلى صدري. كان قلبي ينفجر بكل ما في الكلمة من معنى. وغمرني ظلام مطلق في كفن الليل.

لكن الليل لم يدم. على أي حال، كنت أعرف أنها مجرد هدنة. منذ أن خرجت من المستشفى، حاولت أن أكلم ڤيوليتا لكنها كانت ترفض الرد على مكالماتي الهاتفية. اختلف الأمر اليوم. هي التي اتصلت. بصوت

أكثر جدية من العادة، قالت ثلاث جمل فقط. سؤال وتأكيد وأمر. في الحقيقة، كنت في انتظار تلك الجمل. وفي الواقع، لم أكن أتخيل أن شفتيها ستتلفظان بها. كان السؤال واضحاً ومباشراً: «لم استبدلتني؟»... وبعد صمت طويل أضافت: «أنا في طريقي... انتظرني». ما فعلته هو مجرد السير نحو حافة الهاوية وإطاعتها، مع شعور أكيد بحلول بشارة سارة.

الفصل السابع والعشرون

قد يكون ثمة أمل في حال لقيت هذه الكلمات مصيراً آخر غير المحرقة، في حال قرأها أحدهم من دون أن يحكم عليّ حكماً مطلقاً.

الفصل الثامن والعشرون

ها هي جنّيتي تقترب. حورية الغابة. فارستي. كاهنتي. عطرها الناعم والمؤلم يرتقي من أعماق الأحلام. للحظة وجيزة، خلتها تلك الدمية «التي لا اسم لها» حين سمعتها تهمس إنها تريد أن تزرع في بطني اسماً ووجهاً حقيقيين. عيناها تسيطران عليّ: لولبان منتشيان مذهولان. رغبتها العمودية تستولي الآن على قصبتي الضوئية. هذه الليلة لن تدوم.

«الاغتصاب يبدأ بالنظرة»

خوليان ميركادير رجل غارق في دهاليز شغف محرّم: الرغبة التي يشعر بها إزاء ابنته ڤيوليتا. وفي سعيه لتخطي هذا الهوس وتجنب كارثة الشعور بالذنب، يقوم بابتكار مجموعة من الدمى «المراهقة»، دمى «الڤيوليت» التي تبدأ، إثر تقديمها في معرض دولي، بتجسيد نزوات العديد من الزبائن الذين يقومون بطلبيات أقل ما يقال عنها إنها شاذة. لكن مع هذا النجاح، يصبح خوليان في مرصاد جمعية سرية تسعى الى محو كل انواع الانحراف.

في هذه الرواية، تحملنا كتابة أنّا كلاڤيل الى غياهب الرغبات السرية.

أنّا كلاڤيل

ولدت في مكسيكو العام 1961. من مؤلفاتها حكايات Fuera de escena (خارج المشهد) (1984)، Amorosos de atar (سجن الحب) (1992) وParaísos trémulos (جنان مرتعشة) (2002). حازت على الجائزة الوطنية للحكاية التي تحمل اسم الشاعر المكسيكي «خيلبيرتو أوين» (1991) وعلى الميدالية الفضية عام 2004 من الجمعية الاكاديمية للفنون والعلوم والآداب في فرنسا. ترجمت روايتها Los deseos y su sombra (الرغبات وظلها) الى اللغة الانكليزية. ومن ابرز اعمالها Cuerpo náufrago (الجسد الغريق) (2005) وLas violetas son flores del deseo (زهر البنفسج، زهر الرغبة) التي نالت العام 2005 جائزة «خوان رولفو» للرواية القصيرة التي تمنحها اذاعة راديو فرانس انترناسيونال.

ISBN 978-9953-71-679-4
9 789953 716794